التاريخ الفعلى للنقد الذاتي

توفيق الشـاهـد

لم تعرف البورجوازية المغربية « نهضة » **مركزية** الا فـي عهدين متقاربين فى القرن التاسع عشر : تحت حكم محمد الرابع والحسن الاول من بعده . وقد ارتبطت هذه النهضة بعامليـن اساسيين :

الاول = توسع التجارة الخارجية وانشدادها فى أوائل القـرن التاسع عشر (1830) الى أوربا بالخصوص على نحو **فعـال ومتطـور (1)** .

الثانى = طبيعة الاصلاح الاجتماعى والاقتصـادى والسيـاسى والعسكرى (هذا بصورة **محكمة**)(2) ، الذى توالى فى ذينـك العهدين من موقع الاهتمام المباشر بجعل **السلطة المركزيـة** ، المغرب بالنتيجة قوة « حازمة » داخليا وخارجيا .

واذا جاز أن نعتبر سنة 1845 كما حدد (دوكاسترو) (3) بداية العصر **الحديث** فى المغرب ، وهى شهادة خبير سيـاسى عاصر تجربة الحسن الاول الاصلاحية وكان على اطلاع بمـا يجرى فى الوطن ، فان ذلك سوف يفيدنا لا فى تحديد « **نهضة** »

البورجوازية ، حسب ، بل وأيضا فى اقتراح تاريخ معقول لبداية التدخل الاوربى فى المغرب العربى وافريقيا (الجزائر 1830 ، تمبكتو 1844 .. الى آخره ..) ، والذى سيكون بالنسبة لموضوع بحثنا وبالنسبة للبورجوازية ذاتها فعالا ومفيرا — واننا لنقبل بذلك لتحديد مسالتين رئيسيتين :

الف = ان التجارة الخارجية ارتبطت بصورة مركزة وحاسمة احيانا بالتدخل الاوربى المباشر ، رغم أنها عرفت قبلا امتدادات نحو الداخل والخارج (تمبكتو عبر الصحراء ، وأنجلترا وغيرها عبر البحر) (4) مما كان له انعكاس فورى على البنى الاجتماعية السائدة فى البلاد وعلى دورها السياسى بالخصوص . ولعل احدى النتائج المباشرة لوجود هذه التجارة **بالصورة التى تحكمت فيها الرساميل الاجنبية** ، ولو فى فترة مبكرة من بداية القرن التاسع عشر ، **هو تحول هذه البورجوازية الى وسيط طفيلى** (« كومبرادورى ») يرتبط نشاطها بتصدير المواد الاولية الخام، واستيراد المنتوجات الاستهلاكية المصنعة والترفية الخاصة (5). وقد كان لاحتكاكها **بالمساوم التجارى الاوربى** ان جعل منها أكثر احساسا بمصالحها وأكثر اقتناعا بمطلبها فى انفتاح مثمر ومستمر . وبه اندفعت بعض فئات هذه البوجوازية الى تكوين : ا = (شركات عائلية) حتا ساهمت بدورها فى أحكام نمط هذه الممارسة (بريطل فى الرباط وجبل طارق — بن جلون فى فاس والدار البيضاء ومراكش). وما أن جاءت سنة 1874 حتى كان لامتداد هذه الفئات (12) مؤسسة مغربية فى (مانشستر) . ثم كان لها فى سنة 1890 عدة مراكز تجارية فى السنغال و Saint-Louis الى آخره . ب = **التدخل المباشر فى البادية المغربية** كجزء من امتدادها لاستيعاب مكونات الاقتصاد المغربى وتوسيع دائرة نفوذها التجارى (شراء الصوف — المزروعات) مما يكفل لها

الاستحواذ بطرق سهلة ومربحة على الانتاج الريفى والمضاربة به فى السوق والدولى كشريك قاصر للرأسمال الاجنبى والشركات والبنوك العالمية الخاصة . وقد تحددت هذه **المرابأة المكشوفة** امتثالا لدور الوسيط التجارى بطبيعة **طلب** السوق الرأسمالى الاوربى وحجمه وأنواع مواده . ونحب أن نحصر نتائج هـذه العملية المركبة (مؤقتا) بتكوين ملكيات كبيرة خاصة بالبورجوازية حول المدن وما رافقها من انشاء اقتصادى تبعى .

بـاء = ان « نهضة » البورجوازية كانت منذ البدء « نهضة » **تبعية** اذ وقعت فى دائرة توسع الرأسمال المصرفى الاوربى (الفرنسى وغيره) ومركز قيادته البورجوازى الليبرالى ، فامتدت معه واستفادت من انجازاته الاقتصادية والاجتماعية المحدودة ، وعلى نطاق محدود بالنسبة لها أيضا (6) . وقد تطورت هذه «النهضـة» على حساب الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية بصفة عامة (7) . وبنسبة ما تضرر الفلاحون والصناع من مخلفات هذا التطور ، بنسبة ما غدت البورجوازية قادرة على توظيف خدماتها ضمن السياق العام للتطور الذى سهلته عملية التجارة الخارجية والانفتاح المباشر على أوربا . وقد تجلى هذا الانشطار الافقى فى شتى ميادين الحياة الاجتماعية ، واضعا أطراف الصراع والتناقض على مستوى جديد من الممارسة السياسية والعسكرية والفكرية (بنسبة أقل) . (= الهجرة الى المدن ــ ادماج الفلاحين فى اقتصاد المبادلة ــ تحول جزء كبير من النفقات الضريبية الى عاتق الفلاحين ــ تطور المدن الشاطئية عموما والمدن التجارية الداخلية على وجه الخصوص ــ الطابع الجديد الذى اتخذته سلطة « المخزن » باندفاع البورجوازية الى الممارسة السياسية والعسكرية) (8) . وبه أصبحت البورجوازية شريكا لاقطاع محلى (عشائرى ــ عائلى) فى ممارسة عنف

واستغلال الاقلية (9) ، كما اصبح جزء كبير من الفلاحين والصناع التقليديين وأشباه الحرفيين فى عداد القوى الاحتياطية للتطور اللاحق . **ولذلك يمكن القول آن هجمة الاقتصاد الامبريالى بمقدار ما عجل بأسباب الصراع الطبقى الجنيس ، بمقدار أيضا ما مارس اختلالات قوية فى الاقتصاد والمجتمع التقليديين .**

ان هذه الاشارات السريعة تكفى برأينا لاقتراح مقدمتين نظريتين تمهيدا لوضع التاريخ الفعلى لكتاب النقد الذاتى او بالاحرى وضع (النقد الذاتى) فى سياقه التاريخى .

اولاهما : وهى نتيجة منطقية ترتبت عن وضعيتين تختلفان فى حجم ما اثرا به على الاوضاع المغربية على امتداد القرن 19 وأوائل القرن 20 ، ونقصد على وجه التحديد : توسع التجارة الخارجية وتمركز النمو الاجتماعى الذاتى (الفئات والطبقات) واقترانه او ترافقه مع عملية التسلل ثم التدخل الاوربى المباشر الذى انتهج من الناحية النظرية خطة المبادلة الحرة كاستجابة قصوى لمصالح البورجوازية الاوربية (الفرنسية خصوصا) فى نهب الثروات الوطنية وخلق **وسط كومبرادورى** يسهل هذه العملية بكل ابعادها الممكنة (10). بينما أصبح تجسيده الفعلى فى حقل التبرير النظرى هو فرض الاتفاقات (11) الدولية التى احكمت بما فيه الكفاية شروط هذا التوجه (12) فتوج حقوقيا بمعاهدة الحماية (30 مارس 1912) . لقد كان الاستعمار المباشر وهذا هو الوضع الثانى ، هو التمهيد الضرورى لخلق معادل شرعى (عسكريا وايديولوجيا) لسيطرة البورجوازية الفرنسية واستئثارها بمختلف مرافق الحياة فى الوطن . **ولم يكن للبورجوازية المغربية بكل فئاتها** من دور فى هذا السياق سوى مباركة هذه المبادرة « التجريدية » على نحو ما نصت

عليه المادة الاولى من عقد الحماية باتفاق الطرف المغربى طبعا (= عبد الحفيظ ممثلا) .

وثانيهمـــا = ان التبرير الحقوقى النظرى ومستلزماته العملية، فوق انه عبر عن توسع كولونيالى ضمنى غير مشروط ، لـــم يكن بمقدوره أن يحكم على التطور الاجتماعى فى البلاد بما يخدم استقراره النهائى ، كصيغة نظرية وكواقع فى نفس الآن . ذلك لان الاستعمار الفرنسى ، وقد كان غزوا مدروسا تحت اشراف المصالح الاقتصادية للراسمال البورجوازى الفرنسى (13) لــم يستطع ان يضع المغرب بمختلف فئاته وطبقاته الاجتماعية تحت حماية تشريعاته الا حين احتكم الى **القوة العسكرية فعليـــا .** ومعنى هذا ان المقاومة المغربية المسلحة منذ 1904 بمقدار ما كانت اسلوبا قوميا ووطنيا فى المواجهة ، بمقدار ما كانت تحت تأثير اوضاع مختلفة ، خطة مسلحة لتوليد حركة وطنية اصلاحية فى صفوف البورجوازية المغربية ذاتها ، **مما يعنى ان الاستعمار المباشر هو على نحو معين اطروحة امبريالية بنقيض راديكالى على الدوام .**

الححنا على هذا التقديم النظرى لاعتبارات شتى : فهـــو من جهة يضع حركة البورجوازية المغربية ضمن سياق تاريخى محدد حكم اولا بأول بالتبعية والتخلف ، ثم انه يعطى صورة اخرى مناقضة أصلا تولدت عن الصراع الاجتمـــاعى بالضرورة واذكى الاستعمار شرارتها (= المقاومة) ، ولكنه فى ذات الآن عجل بنهايتها تاركا المبادرة بيد حركة جزئية فى الاصل ، انسلخت عن تركيب البورجوازية المغربية غير المتجانسة ، فقادت حركة وطنية ، كانت طبيعة أهدافها مستخلصة من اختيارات قيادتها وتركيبها الطبقى واسلوب مواجهتها ، وجزئيا خضوعا للشروط الموضوعية التى أملاها الاستعمار المباشر تحت القمع والاستغلال

الـــخ ... وبهذا المعنى كان المثقفون الليبراليون من صنوف هذه البورجوازية (بحكم تأثير ثقافة غربية متعـددة الاتجاهات بمحتوى ليبرالى — اصلاحى ، وبحكم انتمائهم الى وسط سياسى تقليدى تحكمت فيه اعتبارات دينية — اخلاقية) أقدر من غيرهم على تجسيد المطالب الوطنية الديمقراطية ببعث حركة اجتماعية ناهضة انتهت كما يعلم الجميع باستقلال مشروط كان لها منه نصيب هزيل (سبق أن أشرنا فى الفصل الاول الى جزء منه). وهو من جهة أخرى يرسم الابعاد الحقيقية التى تطورت ضمنها البورجوازية المغربية بصفة عامـــة والبورجوازيـــة المتوسطـــة خصوصا ، فانتهت الى استخلاصات ذكية فى اطار مصالحها ، جاء تعريفها النظرى ، وهذه المرة بأسبقية فكرية على كل حال على يد المناضل الوطنى علال الفاسى فى كتابه الرائد : النقـــد الذاتي كما جاء أسلوب تطبيقها الفورى ، وهذه المرة بأسبقية ارتباط عضوى بالامبريالية ، على يد الاوتوقراطية — الكومبرادور فى الاختيارات النوعية التى وضعت للحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى المغرب منذ 1960 اذا سلمنا بالتحديد الـــذى ينطلق منه محمد الحبابى وعزيز بلال وغيرهما (14) ، ضـــدا على مصالح الجماهير المغربية فى التحرر والديمقراطية .. الخ.

كانت الحركة الوطنية اذن ، محملة بروافد متعددة ولكنها كانت من حيث المنشأ والاستمـــرار والتطـــور ذات امتـــدادات بورجوازية على نحو ما أراد الاستعمار المباشـــر وأسلوبـــه فى الاستغلال أن يجعل منها قاعدة خلفية لتطوره الذاتى — الا أن التركيب المفتوح لخصائص هذه البورجوازية — اقترن ونتج عن التوسع الاوربى (اقتصاديا وسياسيا) — كان ملغوما بتناقضاته المعروفة (سنفصل فى بعضها) والتى ما ان تطور الصراع باتجاه امتصاص بعض شرائحها حتى سارعت الفئات المتضررة منها الى

سن خطة اصلاحية ، اصلاحية وكفى ، لتحديد أسلوب عملها خضوعا لمصالح وطنية فى المرحلة ، كما خضوعا لاعتبارات الوضع الاقتصادى والاجتماعى الذى ضاعف من حدة هذا التوجـــه ، وجعله عنوان حركة اجتماعية واسعة تنشد الاستقلال السياسى اول ما تنشد ، ولكنها تنشد قبل ذلك اصلاحات جزئية تضمن لها الاستمرار التدريجى فى قلب موازين القوى لصالح هدفهـــا الاستراتيجى . مما يعنى أن الحركة الوطنية فى الاخير كـــانت **حركة الجماهير المغربية بقيادة البورجوازية المتوسطة ، وبنوع من التحديد ، بقيادة طليعة البورجوازية المتوسطة من المثقفين الليبراليين والسلفيين فى آن** . وهذا يفسر بدوره لماذا بقيـــت خصائص تكوين البورجوازية المغربية المشار اليها فى القرن 19 عاملا يتحكم فى مسارها رغم التباين الذى احدثه الاستعمـــار المباشر فى اسلوب عملها ، باحتواء شرائحها العليا وادماجها فى بنيته الكولونيالية .

ويحسن أن نشير بهذا الصدد ، قبل ان نمر الى تحليل ظروف هذه المرحلة ، الى راى تعميمى ابداه (عبد الله العروى) وهو يعالج خصائص الوطنية المغربية (15) معتبرا ان الحركة الوطنية على عهد الحماية تمثلت فى حركتين مختلفتين على جميع المستويات (الايديولوجية والتنظيمية والتاكتيكية) : احداهمـــا احتكمت الى الماضى بصورة عامة وانغمست فى معالجة الوضع المحلى ، وكانت قوية بالخصوص فى أوقات الازمة ، ولذلك فهى المحرك الحقيقى للاستقلال . وثانيهما كانت تنشد الانفتاح بصورة الممكنة ، وفرضت سيطرتها فى أوقات الحوار ، وكانت هى التى استفادت من الاستقلال بما انها مثلث (العقلانية الكولونيالية)* وهذا التفسير اذ يغفل خصائص التكوين التى أشرنا اليها فى بداية هذا العرض ، يجازف بعرض حقيقة مشوهة لا تفيد الا

فى طمس الموقع المتميز الذى وجدت فيه البورجوازيه المغربية بصورة عامة . نقول الموقف المتميز ، ونعنى على وجه الخصوص ما رافق التسلل الاوربى من حركة الانشاء الاقتصادى الجزئى والذى أثمر فى حينه تفتت هذه البورجوازية وانسلاخ جزء منها عن قاعدته المادية الضعيفة والخاوية وارتباطه بمصالح الاستعمار والوجود الامبريالى فى المنطقه بصوره عامه ، بما وجدت فيه من أختصار لتطورها الذاتى . ونقول تطورها الذاتى مرة اخرى ، بما ان البورجوازية وجدت نفسها عاجزة عن مراكمة راس المال بالطرق التقليدية (الكلاسيكية) ، بمعنى من طريق التشبه (على الاقل) بالنهب الاستعمارى ومنافسة الاحتكارات الغربية الكبيرة ، وهو أمر يفرض مستوى من الراسمال والتكنولوجيا لم يكن بمستطاعها ان تضمنهما بالصورة التى وجدت عليها . ذلك « أن تراكم الراسمال لا يتحقق فقط من خلال امتلاكه ، بل ومن خلال الممارسة المباشرة أو غير المباشرة للسلطة » (16). ان **التبعية** فى اعتقادنا كانت حكما اقتصاديا على الوساطة « الكومبرادورية » الطفيلية (17) ، ولم يكن بوسع البورجازية المحلية الا أن تقبل فى الاصل بما هى عليه حكوماتها من ضعف وتشتت ومساومة (18). الا أن حركة تطور البرجوازية المغربية **لم يكن مغلقا أبدا** . لقد ظل على الدوام عرضة لتحولات بنيوية وأحيانا عميقة ، **انشطرت به ، وخصوصا وجود حركة جماهيرية وتناقض** أساسى انبثق عن الاستغلال المادى المباشر الذى مورس عليها ، الى تشكيلات متنافرة ، ويجب أن نقول فى الظاهر من حيث المبدأ ، تعمقت مواقعها فى خضم الصراع فتميزت بما لايدع مجالا لتعميم تاريخى على نحو ما حاول (العروى) أن يؤكد عن خطأ .

لقد وجدت البادية المغربية منذ ما تحددت مراكز القوى

فى المغرب ، على امتداد القرن 19 ، تحت سلطة الاقطاعية المحلية وهيمنة الملاكين العقاريين الكبار ، وبالمثل وجدت المدن الرئيسية والشاطئية عموما خاضعة لنفوذ البورجوازية التجارية. الا ان هذا الانقسام الذى ترجم فى حينه من الناحية السياسية (بالمخزن والسيبة) (تضاؤل الدور المركزى للدولة وبروز مراكز القوى الذاتية) (*) لم يكن بمقدوره أن يتطور خضوعا لمصالحه وحدها ، خصوصا فى مجتمع تقليدى تتحكم فى نموه بنيات قبلية ما قبل رأسمالية ، ولقد عجل الاستعمار المباشر بوضع حد لهذا الاستقلال النموذجى (بادية / مدينة (اقطاع محلى / بورجوازية تجارية) وأجبر مراكز القوى المتنافرة على ممارسة اسلوب عمل محدد يكون سندا قويا له وللتطور العام الذى يبحث عنه . وبكل تأكيد فقد بقى للبورجوازية المغربية فقط ان تلعب دور شريك صغير فى مختلف سياسات الاستعمار اذ « هناك كل الاسباب الاقتصادية لكى تقوم هذه البورجوازية بدلا من مناهضة المؤسسات الاجنبية فى معركة غير متكافئة ، باقتطاع مكانها فى فلكها . » (19). وقد تطرق عبد الكريم غلاب بما عهد فيه من ميل اكيد الى التفسير الذاتى المثالى الى هذا الموضوع ، فاعتبر أن ظهور الحركة الوطنية من (البورجوازية الصغيرة) كان « بمثابة شعور داخلى **بالذنب** الذى ارتكبه الاباء، فكان على الابناء أن يكفروا عما حدث » (20). والحال ، بما أن العروى قد توهم وجود خطتين لحركتين مختلفتين ومتعارضتين فى آن ، وبما أن غلاب قد انصرف ، وهو يحاول فقط استعارة أسلوب غريب عنه فى التحليل الى تنظير ساذج ، وتافه لحركة انطلاق البورجوازية الوطنية ، كلاهما والحال كما نقول : قفزا عن التكوين الحقيقى الذى به استطاعت البورجوازية المغربية أن تكون فى مرحلة ما ذات اعتبار فى ولوج « نهضة »

تبعية لم تقدها الا الى الوساطة الكومبرادورية ، وان تكون بعض فئاتها قد جنحت الى العمل السياسى السلمى والشرعى وقادت به معركة فى فترة لاحقة ، اقتضت على نحو مثير لبعض الاسئلة ، أن تكون جوابا ضمنيا على (افشال — ولا نقول فشل) المقاومة المسلحة فى البادية المغربية (21) ومنطلق فترة أخرى سيكون الحديث عنها مرتبطا باخص خصائص سياسة البورجوازية المتوسطة فى المغرب ، منذ فترة مبكرة من بداية هذا القرن (1930) .

ان هذه الملاحظات الاولية ، تستدعى تدخلا نوجزه فى النقط الاتية :

1 — ان الطابع البورجوازى للعمل السياسى يصلح كمدخل ، فى ارتباط مع الوجود الاستعمارى فى المغرب — لدراسة تطور الحياة الراسمالية فى البلاد ، بموقعها الهامشى فى دائرة سوق الامبريالية الفرنسية بالاخص ، مما يستدعى أن نفرق منذ البدء فى الحديث عن هذا الجانب ، وعن الجانب الآخر ، الذى يهمنا أكثر من غيره ، نقصد : سياسة طليعة البورجوازية المتوسطة التى وقفت من هذا الاندماج موقف المعارض اعتبارا للتحولات التى جدت فى بنيات الحياة الوطنية :

ا — ظهور كبار الملاكين العقاريين

ب — تحول الفلاحين فى الاغلب الى عمال زراعيين و (خماسة ..)

ج — تفقير الجماهير القروية وتوسيع الملكية العقارية الخاصة (القواد الكبار) (22) .

د — انحصار وظيفة البورجوازية التجارية ضمن اقتصاد

المعاش ، وبقاء دورها دور وسيط مرابى (الاستيراد الاستهلاكى ـــ تصدير المواد الاولية) .

هـ ـــ مثلث البورجوازية المتوسطة من 10 الى 15 ٪ من السكان الحضريين . وخضوع تطورهـــا لحكــم الضرائب القاسى ؛ مع اتساع أفقى للبورجـــوازيـــة الصغيرة : الصناع التقليديون ، التجار الصغار) .

و ـــ ولادة بروليتاريا مغربية ، وهو الطابع الاكثر بروزا وأهمية للتوسع الاستعمارى واستغلالـــه للمجتمـــع الحضرى . (23) .

فالخطوط العريضة لهذا التطور تبين كيف ان البورجوازية المغربية ظلت دائما على رأس الهرم الاجتماعى ، ولكنه لم يكن بمقدورها ، فى اطار منافسة الرأسمال الاحتكارى الغربى ، الا ان تكون تابعة له باقل الشروط الممكنة . وكان ذلك كافيا لها ، لكى تضمن جزئيا امتصاص المستوردات الترفية وتدافع عمليـــا وباسمها عن المبادىء الصالحة لحرية التجارة فى اطار حريـــة المبادرة والاثراء الشخصى ، ولذلك **فدورها من الناحية السياسية ظل محكوما بالمبادرة الرأسمالية ـــ الاستعمارية على وجه العموم** وقد لاحظ Yves Benot ذلك فعبر عنه بقوله : « لقد عرفت بورجوازية البلدان المتخلفة عدوا مشتركا لها وللاحتكارات ، هو جماهير بلادها ذاتها ، وما ستخسره فى حال الثورة ، يكفـــى لحملها على التدخل تدخلا نشيطا من اجل وضع عقبة ليس فقط امام اية ثورة ، بل حتى أمام سياسة مهمـــا ضؤلـــت درجـــة وطنيتها » (24) . وكان عبد الله العروى (المرجع المذكور) على الخطا مؤكد حينما حاول رد الاعتبار لحركة ـــ ملحـــق بالوجـــود الاستعمارى فى المغرب ؛ مع الاشارة الى ان ملابسات القضية

هى من اختصاص تحليل سياسى — طبقى يستجاه طبيعتها . لا يقبله العروى على أى نحو . (25)

2— اننا نعتبر لذلك ان المدخل الحقيقى لدراسة الوطنية المغربية منذ اوائل هذا القرن على اقل تقدير ، لا يمكن أن يتم الا انطلاقا من تحليل الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية نفسها ، وبصورة خاصة لان الاستعمار المباشر ، حيثما حل كان عليه ان يغير بصورة أساسية بنيات الاقتصاد والطبقات بمــا ينسجم ودوره التوسعى الاستغلالى (26) . وبما ان أوسع فئات الجماهير المغربية وجدت فى صف المعارضة كاحدى نتائج هــذه السياسة ، فقد كان من الطبيعى ان تتبلور فى صفوفها حركة موضوعية ، تتبناها بأسبقيــة الوعــى والمصلحــة ، طليعــة البورجوازية المتوسطة المؤهلة ذاتيا للقيام بما يصلــح لهــذا الفرض . ولعله من الاكيد أن ما كان يصلح لهذا الغرض ، جاء على نحو ما أسلفنا اذكر ، موقعا فى العمق بخصائص هــذه الطليعة نفسها : الاصلاحية والمساومة . وسيكون من المفيــد تحديد صفة هذه الاصلاحية بالوطنية من الناحية السيــاسية ، لانها عملت فى مرحلة حاسمة ، على توسيع جبهة المعــارضــة لاشكال السيطرة الاستعمارية ، رغم أنها بقيت تلوك برنامجا اصلاحيا متواضعا فى دائرة هذه السيطرة نفسها (= المطالبة باحترام معاهدة الحماية مثلا). وقد حسم (عمر بن عبد الجليل) فى الموضوع بقوله : « اننا بمقاومتنا للسياسة البربرية نريد تقريب عناصر الشعب المغربى وتوحيده ، ونريد محاربة التجزئة المكافيلية الذى ينشــره بتقتن ممثلــو فرنســا الحــربيون والدينيون » (27) .

3 — ولقد ظهرت أهمية الحركة الوطنية فى قدرة جوابها على اشكالات نوعية ثلاثة :

أولا ــ الظاهرة الاستعمارية بمختلف تشعباتها ، وانطباق الرأسمال الاحتكارى على الاقتصاد والسياسة وغيرهما .

ثانيا ــ الحركة الجماهيرية ومطالبها الديمقراطية الاساسية والجواب على واقعها المتدهور ماديا ومعنويا .

ثالثا ــ الوضعية الثقافية والفكرية بصورة عامة .. الخ .

وكانت السياسات التى اتبعتها قيادة البورجوازية المتوسطة بحيث كان مهما لها أن تلف حولها أوسع فئات الجماهير ، مرتبطة على مدى ابعد من تصورها لظروف المرحلة ، بالآفاق العامة التى غامر الفكر الاصلاحى باحتواء قطبها المحورى ، ونعنى على وجه الاستخلاص : « تحرير الامة » .

بالطبع ان هذا الاهتمام يبقى مجرد منظور سياسى استراتيجى كان يتطلب انتقالات جزئية تخضع لما يجرى فى الواقع نفسه من تحول متواتر ، أنذر فى بعض المراحل بقلب الهياكل العامة للبلاد وفى مختلف المجالات . وفى اعتقادى أن هذا المنظور الاستراتيجى كان على الدوام (رغم تقدمه ووضوحه النسبيين) النقيصة الاساسية ، التى اعطبت نمو هذه الحركة فى بعض المراحل بما يكفل لها تحقيق ما تصبو اليه . ندعى أن ذلك كان نقيصة لافتراض اساسى اشار اليه علال الفاسى بالذات فى خاتمة كتابه التاريخى (شكلا) السياسى التوجيهى (مضمونا) الحركات الاستقلالية . (28)، وذلك بالتأكيد على ضرورة تجاوز مواطن النقص فى العمل الذى قادته الحركة الوطنية . ولم يكن ذلك سوى ضرورة تكوين **نظرية** رآها علال على هيئة « خلق برنامج مفصل للنظام السياسى والاقتصادى الذى **يجب** أن يكون عليه المغرب فى وقت **استقلاله** ؛ لاننا نعتقد **ان العمل الاستقلال**

ليس الا وسيلة لتحقيق اهدافنا التنظيمية فى اصلاح حال الامة)). معنى هذا فى اعتبارنا ان موجه الحركة الوطنية وهى تقود معركة النهوض الاجتماعى فى مختلف مناحيه ، لم يكن سوى اعتقادها الراسخ فى ضورة انجاز استقلال يكفل « حرية » مرضية تعيش بها (الامة) فى طور جديد من أطوار تقدمها ونشاطها . ومعنى هذا فى اعتبارنا أيضا أن قيادة الحركة الوطنية بيد الطليعة المنظمة للبورجوازيه المتوسطة ، كانت تعمل فى اجل مصير ومحدود وفق سياسة مرحلية ، غير منجنسة حتى فى التفاصيل ، متحرى ان تكون على دراية لابد منها فى الجزئيات والتفريعات التقنية والنظرية الملزمة للعمل السياسى الوطنى تحت السيطرة الاستعمارية المباشرة . **لقد كانت الحركة الوطنية مع هذين الاعتبارين حركة خاضعة لمجرى تطور الواقع ، غير فاعلة فى منعطفاته الفرعية ، الا بمقدار ما تجعل هاديها فى العمل ، مطامحها الديمقراطية فى الاستقلال والتحرر** . فهى اذن ، وبالحاد حركة جربت الواقع ولكنها لم تجرب النظرية كما كان يلزم . وقلنا : بالكاد ، لتاكيد أن هذا الواقع ذاته كان يهرب من ممارستها كلما استعصى عليها أن تجد له وفق بيانات الاستقلال والتحرر منفذا صحيحا أو حتى الى الصحة أقرب . ونحن نظن **أن علال الفاسى فى عمله التاريخى (الحركات الاستقلالية) كان يضع من خلال تأمل سياسى استقرائى لاسلوب العمل فى المرحلة السابقة (أى قبل 1948)، التمهيد الضرورى والمشروع لعمله الايديولوجى الوطنى الرائد : (النقد الذاتى). لقد كان بالفعل يجرب على نحو منهجى ضمن منظورات الفكر الاصلاحى البورجوازى ، نقدا ذاتيا يقبل بالمراجعة من اجل الاستمرار ، ويقبل بالاستمرار من أجل استكمال طموح (النهوض بالامة).** وهكذا اذن قدر لعلال الفاسى انطلاقا من **تجريبية** سياسية ،

وانطلاقا من عثرات وتوليفات كانت ضرورية فى بعض مناحــى الممارسة ، أن يقدر حقا ، بعد ربع قرن من العمل الكفاحى ، أهمية نظرية بأقصى ما تحدده من وضوح واحكام ورؤية شبـــه متكاملة أيضا . وقد لا يهمنا الان التساؤل عن فحـــوى هـــذه النظرية واهميتها لمشروع تطور البورجوازية المتوسطة ، ولكنه مع ذلك سيبقى من الممكن القول بايجاز أن الوصول الى هذه النقطة ، كان بكل ما فى كلمة (تحول) من معنى ، منسجما مع الاختيارات الاصلية التى رأتها البورجوازية المتوسطة للعمل على أى نحو كان (سياسى .. الخ) اذ من نواقص التجريبية الاصلاحية هذه المرة ، ما برزت ، بحدة ورعونـــة ، أهميـــة النظرية المتكاملة او شبه (ولنا أن نقول بعد فوات الاوان كما سنشرح بعـــد) .

تلك كانت نقيصة ، ولكنها ، ايضا خبرة ممارسة مديدة ومتشعبة ومتشبعة أيضا بمواقف الفكر الاصلاحى ، وهى لذلك نقيصة الفكر الاصلاحى الدينى كما وجب ان نستخلص فى آخر التحليـــل .

لنلاحظ اذن ، ان قدرة الجواب على الاشكالات الموصوفة أعلاه ، **كانت تفتقد الى ارضية نظرية** ، **مما** جعلها ترهن المهام الاستراتيجية على حساب أن تعى الخطوات الاولية لبلوغها . ولعله من الصواب أن نشير باقتضاب الى أن احدى نتائج هذه الوضعية كان هو **التشبث الشكلى والغامض احيانا** بمبـــدأ الاستقلال **كحد أقصى** يلغى ما دونه من مطالب ، أو يضعها فى أسفل سلم الاولويات على أقل تقدير . وهى خطة مفهومة كانت تلوح بالحدود القصوى ضمانا لسند جماهيرى يتطلع اليها . ولكنها فى الغالب كانت تخفى المساومة فى مختلـــف فتـــرات الحـــرج السياسى . بيد ان هذا الوضع ما كان ليستمر أطول مما عمر ،

اذ سرعان ما ظهرت فى صفوف الحركة الوطنية نفسها فجوات كان من الصعب ردمها الا باحداث نقلة أخرى تعززت هذه المرة بنشدان بنـــاء انظرية . مع ما ينضاف الى ذلك من بروز بعض التناقضات فى صفوف الطليعة الفعلية للبورجوازية المتوسطـــة (الوزانى / عـــلال / المكى الناصرى / الطريس .. الخ) اقتضت أول ما تطلب الامر ان يكون الطرف الاقوى هو صاحب المبادرة الفعلية . ولقد كان **التيار السلفى** هو الـــذى امتلـــك شرعية زمام المبادرة ، وترك للجناح الليبرالى ما دونها من اسباب الوجود على نحو ضيق وسطحى وغيـــر ذى اهميـــة خصوصا بعد تاريخ 1937 (29) .

ومع أن قدرة الجواب كما ألمحنا كانت تفتقد الى ارضية صلبه او نحوها ، الا أنها استطاعت أن تتحكم فى المسار الفعلى لحركه الجماهيرية بما تدبره طليعة البورجوازية المتوسطة من سياسات مرحلية قصيرة النفس كانت نتائجها عكسيه أحيانـــا (1944) وحاسمة فى ذات الان . ويحسن أن نحدد هــــــذه السياسات فى خطوطها العريضة على النحو التالى . (30) .

اولا ــ جوابا على الظاهرة الاستعمارية .. الخ : المطـــالبة بالاستقلال والاهتمام الدعائى بتنظيم الحكومة على غـــــرار الديمقراطية الغربية ، واحترام التراث الروحى والمعنـــــوى للشعب .

ثانيـــا ــ جوابا على أوضاع الحركة الجمـــاهيريـــة .. الخ . المطالبة باعادة تنظيم الثروة القومية ، تأميم الموارد الوطنية ، القيام باصلاح حكومى ، التربية العميقة فى جميع اوساط الشعب العمل على تطوير الوضعية المغربية عموما ، العمل على ازدهار المنظمات الاجتماعية ، الايمان بالمساواة والاخاء ، القضاء على الطبقات ، ترشيد المراة واشراكها فى جميع مجهودات البلاد ،

مناصرة التوجيه الاقتصادى فى **اطار قوى مضاد للاحتكار ومضاد لعرقلة المجهود الفردى ...**

ثالثا — جوابا على اشكالية الوطنية الثقافية والفكرية . . . المطالبة بجعل اللغة العربية وحدها لغة البلاد الرسمية ، الاسلام دين قومى ، تكوين قضاء موحد الجميع ، الحريات الديمقراطية (الصحافة الاجتماع ، التجول، النقابات) توحيد برامج التعليم ، الزيادة فى عدد المدارس ، مسألة النظام الدستورى ، الاسعاف ، التربية والبحث الديمقراطى .

ان هذا التدخل الذى اردناه موجزا يعطى فكرة عامة عن تداخل بعض مراحل التاريخ الوطنى ، الى درجة أن بدا (للعروى) وفى موضوع محدد يتعلق بالحركة الوطنية ، متماثلا فى مساره العام . وبما أن عبد الله العروى لم يستفسر عن معنى هذا التداخل الجزئى (وهذه خصوصية) ، فانه يبقى من حقنا ان نهتم بابراز ما نود الفصل فيه ، وصولا الى تحديد اطار عام دارت فى فلكه عملية جريئة ، مارسها علال الفاسى بتوكيل من البورجوازية المتوسطة فى الاتجاه العام ، وبرغبة حقيقية منه ، كمثقف ديمقراطى على أى حال فى الاتجاه الخاص كما نريد القول ، نقصد : النقد الذاتى . أن الفصل هنا يقوم على عتبار أن الحركة الوطنية ، ولقد سبق أن حددنا ذلك أعلاه ، كانت حركة بقيادة البورجوازية ما فى ذلك من شك . حركة جماهيرية واسعة استفادت البورجوازية المتوسطة من نهوضها العام تحت وطاة الاستعمار ، فاقدمت على تأطيرها ضمن مطالبها هى نفسها جزئيا ، وفى الاخير ترضية لموجة هذا النهوض . ولقد كانت هذه العملية اجمالا **خاضعة لمحتوى** تاريخى معين ، الاقتصادى بالدرجة الاولى ، والسياسى — الاجتماعى والفكرى بالدرجة الثانية . ونحب ان نؤكد أن هذا المحتوى التاريخى

كان بارزا فى سياسات البورجوازية المتوسطة بنفسهـا ازاء الاستعمار ، كما كان حادا فى الواقع العملى . ومن ترابط هذين العنصرين ما اصبحنا نستطيع الكلام بنوع من الثقة عن تغيير وطنى جرى فى الواقع ، جرىء الى حدما ، ولكنه حافظ على وتائره الاصلاحية ، محق ان يكون علامة مميزة فى الدفاع عن المكتسبات الوطنية . بالطبع ان الفئات العليا من البورجوازية المغربية لم يكن بمستطاعها ان تخطط لمشروع كهذا ، ليس فقط لانها وجدت فى الراسمال الاجنبى أسلوبا يتمشى وطبيعتهـا الكومبرادورية ــ التبعية ، وليس فقط لانها وعت مبكرا (منذ ما اتصلت بالمساوم الاوربى) مصالحها المحددة فرسمت من ثم اختياراتها ، وليس فقط لان سطوة الاستعمار من الناحية السياسية ضيقت الخناق عليها فارغمها على الركوع والمساومة بل وبالاضافة الى ذلك **لطبيعة تكوينها الذاتى** ، فهى قد جمعت كل تلك الشروط واضافت اليه من خصائصها المحلية : ضعف القاعدة المادية ، والحداثة التاريخية ... **فتصبح على وجه التحديد بورجوازية ــ ملحق** بالوجود الاستعمارى ، **بورجوازية رثة** بتعبير (فرانك) اذا شئنا الاقتراب من منظوره (31) .

هذا هو المنطلق اذن بالنسبة لنا ، وسنحاول أن نفصل فى بعض جزئياته تبعا لذلك . ساغامر فى البدء بعرض راى موجز يستجلى ادينا **فكرة الاسس الديمقراطية** التى انطلقت منها الحركة الوطنية ، واو بعد فترة طالت فى مداها الزمنى من المنطلق الى البدء . ومع أن المصادر التى تعرضت الى ذكر **جماعة (لسان** المغرب) نادرة ويصعب الحسم فى تناقض الاراء المعبر عنهـا بصددها ، فان الحديث عن جماعة (لسان المغرب) فيه وجاهة معقولة لتحديد الاتجاه المبكر الذى تبلور فى المغرب وعلى نطاق محدود ، نعنى الحركة الدستورية ــ الديمقراطية **شبه الليبرالية.**

اذ مع لزوم الاشارة الى دورها فى تطوير الاسس العامة التى اعتمدتها الحركة الوطنية لتجربتها السياسية فى هذا المجال ، كانت ، كما نود القول ، احدى المصادر — حتى لا نقول رئيسية — التى وجهت ذهنية المثقفين السلفيين والليبرليين (بتجاوز) معا الى طرح أسباب الوجود الديمقراطى « للشعب » المغربى فى فترة حرجة جدا ، كان المد الكولونيالى المباشر يعارض كل توجه نحوها أو الخوض فيها . فليس ببعيد والحالة هذه أن المرتكز فيما عبر عنه علال الفاسى لمندوب (فران تيرور) من « تنظيم الحكومة والشعب على غرار الديمقراطية الغربية مع احترام التراث الروحي والمعنوى للشعب » (32) كان يقوم على استلهام ضمنى لتجربة وقعت سنتى 1908 و 1909 تحت الحكم المباشر لعبد الحفيظ (33). وقد لا يعنينا الان النظر الى الاوضاع العامة التى دفعت بهذه التجربة الى الوجود (34) قبل البداية الفعلية للحركة الوطنية المنظمة بنحو عشرين سنة على وجه التقريب ، بقدر ما يهمنا ان نلفت النظر الى ان المؤثرات العامة لهذه التجربة (الفاشلة) كانت محط انظار الرواد الاصلاحيين المغاربة فى الربع الاول من هذا القرن . وبهذا الاعتبار ، كما افترض ، ظلت تحفر مجراها فى الوجدان السلفى الذى انطبع اول ما انطبع على شيء من (الديمقراطية) كانت ذات شأن يذكر فى تاريخ الفكر الاسلامى الى وقت قريب جدا (35) . ويمكن التقدير انطلاقا من مشروعية الحكم على تجربة ، انتهت فى حينها ، ان الاطار العام الذى صاغ فيه المثقفون البورجوازيون السلفيون حكمهم الاول حول الوضع الاجتماعى المتردى ، كان ينبنى (لنقل كان يتمحور) على / حول رصيد هذه التجربة جزئيا . وسيكون فى مقدورنا فيما بعد مقابلة مفهوم علال الفاسى لاسلوب الحكم وطرائقه ، بمفهوم جماعة (لسان المغرب)

لتعزيز هذه الفكرة (36). لاعتبارات كثيرة اذن يمكـــن جعـــل (التجربة الدستورية المغربية الاولى ؟) **حاضرة** على امتداد **المرحلة التى انفصلت فيها الحركة الوطنية عل المطالبة بالاصلاح الى المطالبة بالاستقلال** (1930 ــ 1944). وقد لا يكون هذا التمييز صحيحا ، الا انه من المفيد ان نذكر باختصار أن (حزب الاستقلال) المغربى لم يزد عن أن وجد نفسه فى المعارضـــة (ولو فى اتجاه آخر) للاسباب ذاتها التى عجلت بمحور وجود جماعة لسان المغرب بعد مدة طويلة جدا من التجريب السياسى الاحترافى. وهاهنا مرة أخرى لعبت الاوتوقراطية ــ الكومبرادور **دورا** كان الاستعمار جربه بوسائل أخرى وفى ظروف أخرى . فاى **تماثل لا** معقول يصهر الموقفين ؟؟ . الا انه من الاسباب التى يطول شرحها مـــا عجلت بان تكون الحركة الوطنية فى جوهرها الاصلاحى امتدادا قد لا يكون عضويا ، لتجربة (لسان المغرب) الدستورية التى وئدت فى مهدها بـــ «**واقيات الحماية**» كما عبر علال الفاسى عن ذلك ذات يوم . وهذا له مدلول بارز فى السياق الذى نعنيه بالدرس . (37)

نحن اذن ، نجد لا محالة فى (برنامج الاصلاحات المغربية) (1934) بعض المواقف العامة التى كانت جماعة (لســـان المغرب) من الناحية **الحقوقية** قد وقفتها ولم يكن الاستعمـــار قد عجل بعد بتدخله المباشر ، خصوصا ما يتعلق منها **باهمية التعليم وضرورته لتطور الحياة الاجتماعية ، ولزوم استنبات المؤسسات الديمقراطية لتفادى مركزية الدولة الاستبداديـــة** . من الحق أن برنامج الاصلاحات المغربية انطلق من **ارضية مغايرة** تماما لما عبرت عنه جماعة (لسان المغرب) ، لكن من الحق أيضا أن مصدر المفكرين **هو** كل ما يعنينا فى تاكيد **تماثل جزئى** حصل عندما استند الفكر الاصلاحى على وجه العمـــوم الى

مصدرين رئيسيين فى مجال التشريع : الفكر الاسلامى والفكر الليبرالى ــ التنويرى الاوربى بتحفظ واضح من الطرفيــن . ومعنى هذا ان تداخل اطوار الحركة الدستورية فى المغرب ، والتى غالبامابقيت ضامرة بفعل واقع التخلف العام ومشوشة أحيانا، وجدت سندها الموضوعى ببروز الجيل الثانى (فى القرن العشرين) من المثقفين السلفيين والتماسهم جانب العمل المباشر فى ميدان السياسة والفكر دون غيرهما من ميادين العمــل المترامية . وهذه ملاحظة نحب أن نؤكد عليها لانها كثيرا ما دفعت بهؤلاء المثقفين الى استلهام **الماضى الوطنى وجعله ركيزة تطور مستقبل**. وهذا الذى يفسر بدوره كيف أن **الخط العام** للمطالب الوطنية على عهد الحمــاية كان **مشدودا على الدوام** الى هذا المــاضى نفسه (تمجيد الاستقلال الوطنى ــ النفخ فى الاعتبارات الدينية كعامل من عوامل الوحدة)(38) وهو ما طورته السلفية مــن منظورات الالحاح على البعث وجعله بعثا **كليا** يتولى الجواب على معظم القضايا التى طرحت فى حينه ، وجزئيا تلك القضايا التى ظلت معلقة الى أن صاغ لها علال الفاسى قــالب النظرية العـــامــة .

يمكن التأكيد مرة اخرى أن مطالب الحركة الوطنية الاولى (سنة 1930) بقدر ما الحت على تجاوز سياسة الاستعمار فى ميدان عمله الرسمى (طمس الثقافة الوطنية ــ تكسير الوحدة القومية ... الخ) بقدر ما عبرت فى الوقت نفسه عن **طمــوح** مشروع فى وضع التجربة الدستورية موضع التنفيذ العاجل .

مشروع فى وضع التجربة الدستورية موضع التنفيذ العاجل .

من جهة حتى تتقيد (الحماية) ببنودها ، ومن جهة أخرى حتى **يتسنى للتيار الوطنى بناء قواه الذاتية على افتراضات حقوقية** تمهيدا لوضع الاسس الاعم للاستقلال الذاتى . لكن التعارض

بين منطلقين متباينين كان هو الذى حكم شروط التطور عموما . ولهذا الامر نفسه ـــ باعتبار الطرف الاضعف فى موازين القوى ـــ **بقى التيار الوطنى يساوم فى حدود ممارسة الاستعمار المباشر،** اى بقى ذيليا لخطة عامة انطلقت فى الاصل من قوة مادية ـــ اقتصادية فى ذات الآن جربها الاستعمار فحاز على بعض النجاح فيها . ويكفى ان نتذكر طبيعة هذه المطالب الوطنية الاولى ، حتى نفهم الى اى حد كانت سياسة المراحل بالنسبة للتيار الوطنى **قاصرة وموسمية** .

هنـــاك عـــدة مؤشـــرات :

ا ـــ الغاء ظهير 16 مايو 1930 وسائر الظهائر والقرارات التى اتخذت فى معناه (= الوحدة)

ب ـــ تكوين قضاء موحد لجميع المغاربة (= الحقوق)

ج ـــ ربط جميع المواطنين الدينيين والمدنيين بسلطة الملـــك الشخصية (= السلطة)

د ـــ ليس فى المغرب دين قومى الا الاســـلام واليهـــوديـــة (= المـــذهبيـــة).

ه ـــ منع الهيئات الاجنبية وادارة المعارف من استعمال وسائل التبشيـــر (= الديـــن) .

و ـــ اللغة العربية وحدها لغة البلاد الرسمية ولذلك يجب ان تكون الاساسية فى التعليم (= القومية) .

ويمكن ان نرى فى هذه المطالب تاكيدات معلومة على مقومات وطنية رات فيها البورجوازية المتوسطة **حقا** لا يطال عليـــه ، ولعل الدلالة ستبقى كامنة فى صنيع البورجوازية هذا ، انطلاقا من تقديرنا الحقيقى لدور سياسة الاستعمار فى تقويض الكيان

الوطنى واحتوائه « ميتروبوليا » ، وهو صيغ جاهزة بما يستحق التأمل أسلوب تفتيت الوحدة الوطنية والاعتبارات القومية أجمالا. والطبيعى هنا فى اعتبارنا أن البورجوازية المتوسطة بتيارهـــا الوطنى القائد ، **حملت حركة جماهيرية واسعة على وعى واقع شانه ، من خلال رد فعل مباشر وليس أنطلاقا من اى شىء آخر.** اننا نسجل مع ذلك، أن طبيعة انطلاق هذه الحركة لم يكن بمقدورها الا أن تتبنى رد الفعل القومى وهي فى حالة من الضعف والتشتت بازاء قوة متفوقة عنها ، بل اننا لنذهب بعيدا لنقـــرر انها لم تستطع أبدا « قبل 1948 وبعدها » تجاوز هذا الافق بما يعطى سياستها قوة تجاوز موقعها الاصلاحى . ومن المهم أن نلاحظ أن هذا الموقع كان هو نفسه آخر مـــا يمكن أن تـــذهب اليه الاصلاحية الوطنية ، فعوامل التأكيد على الوحدة والجانب الحقوقى من السلطة الوطنيـــة والوحـــدة المذهبيـــة والديـــن والخصوصية القومية ، كانت دائما أسلوب عمـــل سيـــاسى — ايديولوجي يرتبط بظروف الواقع اكثر من ارتباطه باستراتيجية نظرية شاملة . ويمكن أن نلمس هذا مجددا فيما اعتبرته الحركه الوطنية برنامج الاصلاحات المغربية (1934)، لكن علينا ان نقول قبل ذلك ، وحتى ضمن هذا الافق الاصلاحى ، لم يكن الاستعمار المباشر يقبل بشريك محلى يتمرد جزئيا أو كليـــا على قوانين سيادته . وهو حال البورجوازية المتوسطة بالتاكيد ، مما كان له علـــى المستـــوى الدعـــائى والجمـــاهيرى نتائج مبـــاشرة وملمـــوســـة . (39) .

لقد انحصر برنامج الاصلاحـــات المغربيـــة (1934) فى مطالب يجب أن نعتبرها جزئية ، كان لتأكيدها من جديد **مدلـــول الارتباط الحقيقى بالآفاق العامة التى تحركت اليها المسيرة الوطنية** وقد ظلت جوانب الاصلاح السياسى والقضائى والتعليمى هى

محتوى الخط فى المطالبة والاحتجاج وقيادة النضال السياسى (40) ضمن شروط واقع كانت تتطلب ، وربما بأكثر مما يمكن ان نتصور ، منفذا آخر النضال الوطنى خصوصا وقد انحشدت له حركة جماهيرية واسعة **كان من الصعب ضبطها الا باحتوائها سلفيا** ، اى بتزكية الجوانب السلمية فى شعورها الدينى ازاء الاحتلال ، وربط عجلة تطورها بالاستقلال نفسه ، كاستراتيجيه من ناحيه وكاسلوب ممارسه من ناحيه أخرى . ولعله مـن المفيد ان نتذكر ما قاله السيد (جيرأردان) لعلال الفاسى جوابا على مطالب الحركة : « ان مطالبكم تشتمل على ثلاثة أقسام : قسم يمكن تنفيذه من الان، وقسم يمكن تنفيذه ولكن بعد حين ، أما القسم الثالث فلا يمكن تنفيذه ، لاننا **لانريد الجلاء** عن المغرب من **تلقاء أنفسنا** » 41 . ولعله اشعار مدروس من طرف وكلاء الاستعمار انفسهم لحركة لم ترد وعى مصالح البلاد الا فى علاقة ذاتية مع مصالحها . وفى راينا ان المسألة كانت تنطرح دائما بصورة محدده : الثورة الديمقراطية الوطنيه أم الاصلاحات الشكلية ؟ ، بعبارة : الاستقلال الوطنى التـام والناجز أم التبعية ؟ . والحال ، أننا فى واقع الامر بازاء حركة لم يتمد أفقها التمسك الكامل بالاسلام والنظام الملكى والدفاع عن الفلاح ومقاومة البؤس والدفاع عن الدين . وهى حركة وعت بكل تأكيد **حدود** ممارستها ، ولكنها **تطاولت** على جـر المد الجماهيرى الوطنى الى موقع يضمن لها سيادة ، كان يضمن لها فى المستقبل شراكة فى السلطة ، كأن يضمن لها فى آخر المطاف تحقيق الدولة التعادلية الرأسمالية التبعيـة (بدون ادنى شك). ونستطيع ان نقيم الدليل على هذا أيضا من **طبيعة** المطالب المستعجلة التى قدمتها اكتلة الوطنية فى اكتوبر 1936 الجنرال (نوجس) (42). ولكن الذى نحب أن نلح عليه هو

ان طبيعة هذه المطالب الديمقراطية كانت فى ذات الوقت موقعة بخصيصة البورجوازية المتوسطة فى اعتبارها مطالب حد أقصى ، ولذلك فهى **مطالبها** دون ان يكون فى مقدورنا **الحسم** بأى النتائج كانت ستعود على أوسع فئات الحركة الجماهية لو أنها تحققت. ولدينا من المبررات ما يكفى للحكم على نسبة ذلك بالقيـاس الى الاختيارات الاساسية للحركة الجماهيرية . ولعل قبولهـا بتسوية الاوضاع المتردية ، بما قد يحمله من امتصاص للبطالة المقنعة وتضخيم القطاع الثالث، وادخال بعـض الاجـراءات الشكلية على أوضاع الصحة والتعليم .. الخ ، لعل قبولهـا بذلك فيه معنى آخر عن حجم مبادرتها بازاء كل مـا يمكن أن يتجاوزهـا .

نحن نرى اذن فى ثلاثة مراحل ثابتة (1930 — 34 — 36) ان البورجوازية المتوسطة لم تضمن من ورائها سوى بناء قاعدة تنظيمية (الحزب الوطنى) قد لا تكون صلبة بما ان هذا الافتراض وارد ، ولذلك فالامر يستدعى افتراضا آخر نجمله كالآتـى : **ان البورجوازية المتوسطة كقيادة بمقدار ما كانت تجد نفسهـا مدفوعة الى النضال السياسى الشرعى فى غالـب الاحيـان ، بمقدار ما كانت تلتمس الاستمرار لنفسها ولحركتها عبر لجـم حركة الجماهير ضمن أطر اصلاحية مكرسة لتمجيد أهمية النضال الشرعى والتكوين السلفى . لكن الخطوة الضرورية التاريخية** (بمعنى ما) أمام تقلبات الوضع السياسى — مع افتراض قضايا اخرى كانت واردة بصورة أقل (تجاوز الاصلاحية بالمقـاومة المسلحة) — كانت ، وهذه المرة بصورة معهودة جزئيا ، تقتضى المغامرة بآخر ورقة استراتيجية (= الاستقلال) حتى لايكون ذلك مدعاة لتفتتها التدريجى . **لقد كان المخرج التنظيمى خطـة لمواجهة احتمالات المستقبل** . مع أنه يبقى من حقنا ان نلاحظ أن

الحركة الوطنية كانت على الدوام ضحية ممارسة تجريبية — انتهازية معلقة بنفوذ واتساع حركة الجماهير وسياسة الاستعمار . لكن المخرج التنظيمي ايضا كان جوابا ، على نحو آخر ، على الخطوة الاولى التي اقرت بها الامبريالية الفرنسية بالمغرب ، ضرورة اجراء اصلاحات جزئية لتمييع النضال الوطني والصراع الطبقي في آن . أو بأقل تقدير كسب جولة اخرى ضدهما ، تمهيدا للقضاء على الحركة الوطنية بالنتيجة . وعن هذه الافتراضات صدر مفهوم التكتل السياسي كارقى شكل تنظيمي عته طيمة البورجوازية المتوسطة المغربية (43) . وهي قد فعلت ذلك انطلاقا من فرضياتها السابقة حول «تحرير الامة» . فليس ببعيد اذن أن يكون التنظيم السياسي بهذا المعنى — ولو انه يفتقد الى نظرية مرشده — مرحلة أكثر التزاما بالنضال ، ولكن على نحو شديد الحساسية ، حتى لا يكون نضالا يتمرد عن اطروحاتها العامة . لقد كان التنظيم بهذا الاتساع الشكلي ممارسة اصلاحية محددة تتخفيف من حدة اي نشاط راديكالي يمكن ان يبرز من صلب النضال الوطني الديمقراطي ويعطي لذاته احقية تجاوز الاصلاحية ونبذ مفاهيمها المحافظة . هذا هو الاطار العام ، وحتى لا ننسى أن التشبث بالاطار التنظيمي ، كان في حد ذاته تشبثا بممارسة « الوسائل المشروعة لتحقيق مثل الوطنية المغربية العليا وانجاز مطالبها العادلة » (44) ، فالقول بأن التجربة اسياسية الاصلاحية لم تتمخض الا عن خلاصة مركزية واحدة (= التنظيم) لا يعني ابدا أن الخلاصات الاخرى ظلت معلقة الى حين تحقيق الاستقلال ، فلدينا أكبر شهادة تمخضت عن الطرف السياسي : كتاب النقد الذاتي . وهو بمعنى ما وثيقة ايديولوجية تضمنت تأملات حدا بها النقد الى تقرير النقد الذاتي (وسنشرح ذلك بعد) . وهذا ما يجعلنا نقرر

بدون أن نخاف الوقوع فى سوء التقدير ، أن التنظيم السياسى الشرعى هو الذى استطاع أن يعمم الاستقلال فى الايديولوجيا الاصلاحية بمثل ما استطاع أن يفجر عمل البورجوازية المتوسطة فى فترة لاحمه كتناقضات بارزة . لذلك اذا كانت سنة 1944 قد افضت الى اختبار تعميم الاستقلال فى الايديولوجية ، فقد كانت سنة 1948 بداية تحول لا محيد لنا عن نعته بالجدى ، اذ خرج فى التحليل الاخير عن جادة ما سطرته طليعة البورجوازية المتوسطة من مستلزمات وأدوات لهذا الاستقلال . والحق أن الفكر الاصلاحى ، مع تقلباته وانتقائيته ، لم يكن يحشد الا مزيدا من المبررات لهذا الخروج الشرعى فى مسيرة التطور التاريخى بالمغرب . الا أن هذا الخروج ذاته ماكان ليستحق أن يوصف بالعبارة لو لم يكن ما ترتب عنه قد طبع الحياة السياسية فى البلاد وكان باعثا لحركات ديمقراطية تقدمية ستعرف مصيرا أسوأ مما كان يمكن التوقع به اذاك مع أواخر سنينات هذا القرن .

بهذه الصورة اذن تبلور الخط العام لمطالب الحركة الوطنية فى خلاصات محددة . من المعلوم أن الجماهير المغربية قدمت فيها تضحيات معروفة (45). لكن يهمنا قبل ذلك أن نتساءل بأى معنى استحقت هذه الخلاصات وقفة كهذه ؟ ونقترح الجواب فى النقطتين التاليتين :

النقطة الاولى : نعتقد أن الاستقلال ، ولو أنه كان منظورا تقليديا فى السياسة الاصلاحية ، هو **بداية** مرحلة جديدة ، **أحدث فى فكر علال توازنا بين الممارسة والنظرية** ، أو بعبارة أكثر انطباقا على الموضوع ، ساهم فى خلق امكانات موضوعية ، تفتقت فى التحليل عن خلاصة : النظرية . بحيث رآها فى وجوب « انكباب المختصين منا على دراسة نواحى النشاط الشعبى السياسية والادارية والثقافية والمالية والاقتصادية والاجتماعية

وغيرها فى كل ما يرجع لتنظيم الدولة وتنظيم الشعب » (46). وعلال هنا يستوحى على نحو دال اطروحة :« لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية »(يستوحى فقط !) مضيفا بقوله « وهذه حقيقة واقعية (يمنى الاطروحة) لان الحركة هى دائما فرع الرغبة التى هى بدورها فرع التصور والادراك » ثم مضيفا ببهجة وعطية « ولم ينجح الشيوعيون فى روسيا وغيرها على رغم ما فى منهجهم من غرابة وما يحتوى عليه من مبادىء هدامة ، الا لانهم استطاعوا ان يتعجلوا تحقيق كثير من الاصلاحات الفلاحية والصنعية فى كل مكان احتلوه ، ونحن الذين نريد أن لاندع مجالا لاى مبدأ هدام (لاحظ جيدا) او برنامج منحول يجب أن ننتهز فرصة فراغنا من مسؤوليات الحكم وشعورنا بمواطن الضعف فى النظام القائم ببلادنا ، فندرس الانظمة العالمية ونقيس عليها حاجياتنا الخاصة ونكون مذهبنا فى أدق معانيه وبأكثر تفاصيله حتى يتاح لنا ارضاء امتنا بتحقيقه دفعة واحدة ، فنحصل بذلك على ايمان من الشعب بنفسه وبنظامه وحكومته فى عهد الاستقلال » (47) . ونحن نعتقد ان معانى هذا النص واضحة تماما ، لذلك فلا نحتاج الى كبير عناء الايضاح مدلولاتها السياسية والايديولوجية الطبقيه ، مع انها وردت فى كتاب كان من الممكن أن نضعه فى الجانب التاريخى الصرف من الاهتمام (= أن الحقل التاريخى هو ميدان ممارسة الايديولوجيه بالطبع). اراد علال ان يؤكد مرة واحدة : وجوب النظرية ومقاومه كل انحراف عنها واسترداد الثقة الجماهيرية وبناء الدولة التعادلية (المحور) والتنظير لنوع جديد من التحالفات تبلور فى حينه (48) والدخول فى طور جديد من « المقاومة » التى كانت بدورها ، هذه المرة مبكرا ، علامة على الموقع الرجعى الذى بدأت الحركة الوطنية ، والقيادة

الفعليـــة بقنيـــل من التعميـــم للبورجوازيـــة المتوسطة تختطه لنفسهـــا (49) ، وقد تقوى فيما بعد فاصبـــح عنـــوان هـــذه الطبقة تاريخيا . واذا تجاوزنا بعض فلتات علال ، أمكننا أن نستخلص أن هذا التوجه ـ فوق انه يخضع الممارسة لدرس جدى بغية تحديد عناصر النظرية ـ كان بالحق توجها بالنظرية للفعل على نحو رجعى فى ظروف الصراع الطبقـــى بالمغـــرب . وسيكون هذا واضحا بعد اندلاع المقاومة المسلحـــة فى بدايـــة الخمسينات ، وواضحا جدا مع التحول الذى حدث فى المغرب مع الاستقلال المشروط . **ولقد أراد علال ان يفوز بالاشواط جميعها : بناء النظرية للتحالف البورجوازى ، والتحالف البورجوازى لكسر مسار الحركة الديمقراطية فى المغرب ، وفعل هذا فى الاخيـــر تأكيد الدين وافتعال بهرجة المعارضة السياسية .. الخ .**

وكل هذه الخطوات بالطبع كانت بمثابة تاكتيكات اذا شئنا ان نعبر ، ذلك أن الذى وضع علامة النظرية فى الواقع وعلى وجه التحديد هو الكتاب الابرز : للنقد الذاتى . وهو من هذه الوجهة خلاصة الخلاصات . اذ فيه سيحدد علال آفاق التطور المستقبلى وقد تكشفت لديه افضاية المصلحة الطبقية الخاصة على ما عداها من افضليات . والوطنية هذه المرة فى ذاتية علال **المناضل ، تخلى مكانها للسلفية فى ذاتية علال ـ المفكر النقطة الثانية** : كان بامكاننا أن نلاحظ أعلاه ، أن المسلك الذى حدسه علال لاستخلاص النظرية من الممارسة كان يقوم على اعتبار سنتولى تفصيله فيما بعد ، ونقصـــد على وجـــه التحديـــد : اتجاه الحركة الجماهيرية عموما وبروز ما يستحق أن يكون علامة فى تحولها عن مضمار الاصلاحية ، وبوسعنا أن نفترض مع سذاجة مقبولة : أن الحدس الاصلاحى البورجوازى كـــان هنا أسبق من غيره فى رجم التطور !!. الا أن مـــا يجـــب أن

نسجه تحت عنوان هــذه النقطة **هو خروج القضية المغربية الى حيز الامكان عربيا وعالميا** : مما كان يترجم فى حينه انفتاح آفاق النضال أمام الحركة ووجودها فى موقع أفضل من السابق . ولعل الامتداد العربى خصوصا للقضية المغربية كــان يرتكز فى الاصل على مفهوم دينى بحت ، مما جعلها تحظــى باهتمــام التجمعات المغلقة دينيا (الاخوان المسلمون فى الشرق مثلا)، مع أن هذا الارتكاز بما هو عليه قد وجد بعض الاصداء فــى الخارج (فرنسا : فرانسوا مورياك مثلا ، وماسينيون وآندريه جوليان فى فترة أسبق فى مرحلة أسبق). وقد اقترن هـــذا الانفتاح بتصاعد وتيرة العمل النضالى سياسيا ودعائيا ، وارتبط على نحو مباشر بعلال افاسى وبعض معاونيه (50). ونحن نعتقد أن هذا الانفتاح المتنامى كان من **الناحية النظرية** من **الاسس** التى هيأت لعلال الفاسى الشروع فى صياغة كتابه (النقد الذاتى) ومعنى أن وقوف الفكر الاصلاحى على ضرورة مراجعة مساره النضالى من منظورات بورجوازية ، كان على علاقة وثيقة بتحول (**القضية**) المغربية الى مرحلة أخرى من الاهتمام ، وترابــط هذين العاملين له ما يبرره فى الواقع العام **جماهيريا وصراعا** .

على هذا النحو تصبح الخلاصات محض تاملات فى الماضى لمعالجة المستقبل ، وهى قاعدة كثيرا ما كان للفكر السلفى فيها دور الحافز والمثير فى آن . ومن الواضح أنها جربت هنا فــى ظروف جديدة كليا . ويحسن أن نحدد ان الخلفية التاريخية التى **جاءت** فيها ـــ بما وعت طليعة البورجوازية المتوسطة أنه **قدرتها** على التحرك فى اطارها العام ـــ كانت باعثا وموجها ، ولربما فى المقام الاول ، سياقا لم يكن للبورجوازية المتوسطة ـــ كطليعة ـــ فيه خيار بين الفعل فيه أو عدمه « بين قيادة النضال أو الرضوخ

للواقع العام تحت شتى التأثيرات ، مع ان قدرتها كانت محدودة على أى حال » ولقد كان تراكم الاحداث السياسية والاجتماعية هو قبل كل شيء نتيجة مغامرة الاستعمار المباشر بجعل الاقتصاد المغربى اقتصادا تابعا وموجها لترضية السوق الراسمالى تحت الاشراف المضمون للامبريالية . مما نتج عنه انسحاقات كثيرة (51) ، أفرززت فئات واسعة احتياطية لاتستفيد من عملية الاحتواء هذه ، إلا بمقدار ما تعود عليها بالاستغلال الفورى. ومن الواضح ان الانشاء الاقتصادى الامبريالى فى ظروفه استثماره الخاص ، قد جند هذه الفئات بطريقة عكسية مما كان له اهمية قصوى فى ظروف العمل الوطنى الذى استقطبته البورجوازية المتوسطة بما كان لها من مؤهلات ذاتية (الوعى المبكر بالمصلحة الوطنية ...) .وكانت دواعى هذه العملية كما راى (فرانك) بالنسبة لاقتصاد أمريكا اللاتينية ، **ناتجة عن استتباعات اقتصاد تصديرى استغلالى متطرف تابع للمتربول** ، الامر الذى قيد السوق المحلية وخلق بورجوازية رثة انتاجية ومصدرة للمواد الاولية . فيما عملت مصالحها على خلق سياسة للتخلف (أو النمو الرث) بالنسبة لمجموع الاقتصاد . (52)

ان العمل الوطنى فى اعتقادنا لم يكن بمستطاعه أن يحدد انطلاقا من غياب النظرية كما استخلص علال ذاته ، نشاطه على نحو ملموس ومؤثر ، الا انطلاقا من التدخل الاجنبى فى شؤون الوطن بصورة عامة وفى أخص شؤونه الاقتصادية والسياسية (53)، ومع ذلك فقد كان هذا العمل يرتكز من جهة اخرى على عملية استقطاب الفئات والطبقات الاجتماعية المتضررة من عملية التدخل هذه ، باثارة وعيها الوطنى وجذب انتباهها الى معطيات النضال وقواعده ، ولقد تسلحت

للبورجوازيه المتوسطة هنا بسلاحين فعالين فى الممارسة : الدعم الجماهيرى والوعى الوطنى ولو فى حدود اختياراتها الخاصه المحكومة بآفاقها الاصلاحية .

ان الخلفية التاريخية تسمح لنا بهذا المعنى بتحديد موقع **سياسة الاصلاح** فى الظروف المحيطة ، كما تسمح بالمثل باستجلاء طبيعة هذه السياسة والمسار الذى انتهجته كجواب عليها (على الظروف ...) **ولذلك كانت سنة 1948 سنة حاسمة بكل معنى القول** ، وكل الظروف قبلها كانت لها بمثابة تمهيد لابد منه .

فى سياق آخر كان علال الفاسى قبل هذا الحين منفيا فى (الغابون) منذ اكتبر 1937 (افرج فى 26 يونيه 1946) . وقد لا يهمنا الحديث عن هذه المرحله الا بمقدار ما انعكست اوضاعها على علال الفاسى نفسه فألهمته تأملات طويلة ، كانت كانت تمعانيها أبلغ مما يمكن الوقوف عنده فى هذا العرض . لكن يهمنا ان نتشبث بالقول فى انها كانت معجلة باستقراء ظروف العمل الوطنى والفعل فيه من زاوية النقد الذاتى ، الى حين اقر علال بشرعية تأملاته فاستخلصها فى وجوب تكوين مذهب « فى أدق معانيه وبأكثر تفاصيله » (الكلام له). وقد نبه الى ذلك بقوله : « وقد كان للمنفى الطويل اثره العميق فى فكر علال الفاسى وفى تصميمه على المطالبة بالاستقلال * كما كان له اثره فى النظرة الشمولية الى صراع الشعوب المستضعفة جميعها ضد الاستعمار » (54) .

من هنا يمكن التأكيد مرة اخرى أن الظروف الموضوعية الفاعلة كانت مؤثرة بشكل مباشر على تصرفات علال ، بل وحاضرة فى مجموع خلاصاته ، واذا كنا قد استخلصنا فى السابق

ان ظروف الحركة الجماهيرية (بالخصوص) كانت ملزمة لهذا المنحي باخذ طريق المراجعة الدالة ، فسيكون مـــن الضروري الآن ان نبيح لانفسنا بايجاز شديد الاشارة الى عوامل أخرى كانت بالغة التوجيه ، نقصد على وجه الخصوص : أ ـ ظهور الحزب الشيوعي المغربي كقوة اجتماعية وتنظيمية مستقلة بعد 1945 ، ولعله مارس تأثيرا معينا ـ وقد مارسه بكل تأكيد ـ حدا بالشخصيات الموقعة على ميثاق التحالف (حزب الاستقلال/ الشورى) الى وجوب التنبيه الى عدم الدخول مع الشيوعيين في أي تحالف .. الخ . ب ـ بروز الدور الطليعي للطبقة العاملة المغربية في النضال الجماهيري ولو على نحو محـدود (1948 وخصوصا 1950). جـ ـ قضية فلسطين والتحولات التي حدثت في المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية .. الخ . وهذا ما يسمح لنا بالقول : ان ضروب هذه العوامل دفعت بالتيار الاصلاحـــي السائد في الحركة الوطنية الى تأكيد معطيات عمله السيـــاسي والاجتماعي ، بل والى اختبار نمط من الممارسة أصبح بـــارزا بعد الاستقلال المشروط . وهذا نفسه (ولو في اتجاه آخر) ما دفع بعلال الفاسي الى القول سنة 1948 : « يجب أن نؤكد أن روح مولانا (يقصد الملك) هي التي نفخت في كل المجهودات الشعبية . وان **حزب الاستقلال** وغيره ليسوا سوى ملبين لدعوة الملك ومقتدين بعمله . وان استجابة مولانا لرغبة الاستقلال في رعاية حركة الاصلاح ؛ كانت فاتحة العهد السعيد الذي يتبلور وسيبدو بعد **قليل عصر النهضة والتقدم والانعتاق** » (55). **لقد** كان من الواضح ان نهوض الحركة الجماهيرية وبروز قوى اجتماعية تقدمية في نشاطها النضالي ، ستنتقل ببعـــض فئـــات البورجوازية المتوسطة (نظريا) بقيادة الطليعة المنظمة ، الى **مرحلة اخرى من العمل والتحالفات والتنظير، جاعلة مصدر الخطر**

هذه المرة فى هذا **النهوض نفسه** . وقد لا يكون يكون ذلك بحدة ومغالاة ، لكن ثبات هذا الموقف هو ما يعنى فى السياق أن هذه **كانت على بينة** من مصالحها الفعلية فى نهج خطة الاستقلال حتى يتم لها الانفراد بحصتها فيه دون كبير عناء ، وكانت أيضا على بينة من ظروف الصراع الطبقى فى المغرب ، مما جعلها باستمرار تبحث عن متنفس ، ان لم يكن فى التوجيه المباشر (وقد يكون فقد مفعوله ارتكازا على التبشير السلفي) فعلى هدى **من تحديد** طبيعة المرحلة المقبلة وتخطيط برنامجها . وهذا مـــا يؤكـــد أن استخلاص النظرية بالنسبة لعلال كان فاتحة عهد من العمل فى اتجاهين متناقضين فى الظاهر ، ينسجمان فى الجوهر : مواجهة ظروف تنامى المد الجماهيرى وتحديد دور التناقضات والصراعات فيه ، ومواجهة الاستعمار المباشر . وبما أن هذا الاخير كان يمهد لطور جديد من العلاقة على مستوى **الاستعمـــار الجديد** ، فقد كانت الحركة الجماهيرية هى **القوة الوطنية المستمرة** التـــى ستعجل بتحديد خصائص المرحلة وخصائص العمل السيـــاسى للبورجوازية المتوسطة معا .

ان التأكيد على الارتباط بالملك وبالعرش كان سنة تقليدية فى منهاج الحركة الاصلاحية (بعد 1934) (ذلك يستدعى تأملا لم نستطع بلورته هنا وسيكون بمقدورنا أن نشير اليه فى الفصول اللاحقة)، ولكن ــ هذه السنة ــ فقد كان التوجه عام 1948 الى هذا الارتباط مفهوما من الناحية السياسية ضمن التصريح الذى ادلى به محمد الخامس بطنجة سنة 1947 (والمستوحى بالاجمال من مبادىء (ولسن) وقضايا تخص الوضعية فـــى البلاد ــ أنظر هامش 50 ")، ولكنه لا يمكن أن يفهم (أى التوجه) بصورة كاملة الا فى علاقة مع خصائص البورجوازية المتوسطة فى المغرب وتكوينها المتناقض الخ .. وهكذا فقد جاوب التيـــار

السائد فى الحركة الوطنية انطلاقا من هذه الفترة بضربة واحدة على ما ظل معلقا منذ 1930 . كان دور الصراع الطبقى منطمسا فى التناقض القومي (الاستعمار المباشر) ولكنه سيصبح بعد 1948 عاملا مكيفا فى مرحلة ومغيرا فى مرحلة أخرى لاساليب عمل البورجوازيـــة المتوسطة واهتماماتهـــا وشروط وجودهـــا واستمرارها (كطبقة سائدة من الناحية السياسية) نفسه . ولنا أن نؤكد أن وجودهاكان يحدد فقط على نحوين : اما المساهمة فى انضاج المد الجماهيرى وقيادة المقاومة المسلحة جوابا على شعارها الاستراتيجى الذى لوحت به منذ مايزيد على 15 سنة ، وهذا طموح يتعدى فى جوانبه العديدة قدرتها الطبقية على تحمل نتائجه المباشرة . وقد اظهرت تجربة المقاومة بعد 1953 أن هذا الاحتمال كان واردا على **نحو آخر** . واما الالتقاء **موضوعيا** مع الاطراف التي مثلث دوما السند المباشر للاستعمار فى المغرب، وهذا احتمال رجحه نفوذ الحركة الجماهيرية وبداية استقلالها عن سياسة التيار الاصلاحى البورجوازى .

لذلك يظهر لنا حاليا أن (النقد الذاتى) كان فى الحقيقة ردا على **موضوعات** معينة مطروحة للبحث بالحاح حاد ، ويمكن ان نحددها فى الآتـــى :

الموضوع الاول : بالنسبة لعلال الفـــاسى **شخصيا** ، وقد كان يومئذ علما من اعلام الوطنيـــه المغربيـــه بفضـــل التنظيـــم الاجتماعى الذى حدد له هذا الدور (56) وأولاه حصانة جعلت منه قطب الرحى فى الاستقطابات التى كانت تتم لحساب التقدم الوطنى بصورة عامة ــ فعلال الفاسى بهذا المعنى كان قد جرب قدرته على اختبار الحركة الجماهيرية طوال فترة مديدة ممـــا أوحى اليه بالوقوف عند منعطفاتها الكبيرة ، خصوصـــا وأن الاستعمار المباشر والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المغربية

المترتبة عنه بصورة عامة ، كانت تزكى لديه هذا الوقوف . انه مرحلة بهذا التفسير . ولذلك فهو قد جسد فى اعتقادنا اهتمامات المرحلة بكل ما ينطبق عليها هذا الوصف . لقد اقدم على جعل الارتكازات التي تبلورت لديه فى هذا الحين قيد ممارسة ارتبطت بهذا القدر او ذاك به شخصيا . وبما أن قناعته النصانية كانت قد نهيات سنطبق على نظرية مذهبية ، لذلك كانت خصائص هذا الانطباق محكومة بالمؤشرات التي ساهمت فى انضاج تاملاته . وبهذا كان النقد الذاتي مرحلة فى تفكيره المذهبى ، كما كان تنظيرا قويا للمسار الذى يقترحه لحركة اجتماعية بلغ نهوضها اوجه حتى لم يعد يقبل بالتفسيرات الآنية والشعارات الاستهلاكية . ولنا أن نفترض بهذه المناسبة أن البورجوازية المتوسطة اذا كانت قد اعلنت نفسها على امتداد المرحلة ، الطبقة الاولى من الناحية السياسية ، فقد كان عليها بحكم التطور الاجتماعى نفسه أن تختبر قدرتها على احتلال الصف من الناحية الاقتصادية . لقد كان عليها بعبارة اخرى أن تختبر السلطة حتى ترسى ذلك على نحو ثابت . لكن جميع الاحتمالات هذه المرة كانت قيد الدرس . لذا صدر النقد الذاتي بتفصيل موسع حول طبيعة الانشاء الاقتصادى ومستواه وضرورته (الباب الثالث). مع ان المرحلة اللاحقة لسنة 1948 هى التي تولت صياغته حقا على نحو اكثر تفصيلا (وثيقة التعادلية : 11 يناير 1963 مثلا). ومعلوم أن علال الفاسى استوحى (باقتدار) انتقائى — تجميعى (اذا جاز التعبير) ما راج فى الفكر الانسانى من مواقف رآها تعزز بهذا القدر او ذاك تاملاته هذه وتصب مباشرة فى النقد الذاتى . وكان علال قد صرح فى الثلاثينات من هذا القرن : « ان مونتسيكو وفولتير وديدرو وبومارشيه وروسو وغيرهم من عباقرة الامة الفرنسية

هم الذين كانوا رجال المال ولا رجال الحديد ، وفكر هـؤلاء وادبهم الراقي المتين هما اللذان ولدا الثورة الفرنسية ؟؟ ! التى بعثت تلك الامة من مرقدها وعلمتها كيف تحكم بنفسها فى جميع ميادين الحياة السياسية والمالية والفكرية » (57). وأبرز ما فى هذا القول رغم تهافته ، أن البعث الاجتماعى ... الخ. يتطلب حركة فكرية قوية يقودها « المصلحون » الاجتماعيون من اجل النهوض « بالامة »، فهل كان علال يواجه هذا الاختيـار وهو يومئذ يضع الخطوط الاولى لمشروع كبير ؟؟؟

نحن نظن : نعم ، ومن هنا نفهم لماذا سـارع علال ، فى مرحلة مبكرة ، الى توجيه الحياة فى البلاد ، اعتمادا على **مقولات الفكر السلفى ، لقد كان واقعا بكل تاكيد تحت توجيه مصادر مختلفة ، وبصورة تعميمية كان ماخوذا بالنهضة التـى تربت فى اوربا أول الامر ، ثم انقدت فى الشرق العربى فـى ظروف اخرى مغايرة (تقريبا بعد 1800)، ويلزم كما سنرى فى الحاج علال استنباتها هنا فى أقصى الغرب العربى .**

ان المواقف التى صدرت عن هذا التوجه ، **كانت جديدة فى** محتواها الطبقى ، دخيلة بعبارة أخرى على نشاط البورجوازية المتوسطة اجتماعيا وسياسيا فى المغـرب ، لكنهـا خضعـت لخصوصية تكوين هذه الطبقة فى البلاد من الناحية الاقتصادية. واذا شئنا التحديد فقد خضعت **جملة** الخط الفكرى الاصلاحى — البورجوازى ، مما أبرز فيها طابع السلفية الدينى أيديولوجيا ، وتمجيد المبادرة الفردية اقتصاديا والمثالية الذاتية فلسفيا . وقد لاحظ لويس فيطال (58) فى سياق آخر « ان الفكر الليبرالى فى القرن 18 الذى سمح فى أوربا بانجاز الثورة البورجـوازيـة الديمقراطية ، قد وظف فى أمريكا اللاتينية لاستكمال احـدى

هذه المهام ، نعنى : الاستقلال السياسى » هذا سياسيا ، ويحسن ان تكون توابعه فى المجالات الاخرى ، على نحو ما سطرنا ، من الاسس التى تقبل الاخذ والرد فى فكر علال الفاسى باقل تقدير .

لقد انكب علال الفاسى على مصادر متعددة . وهى متعددة بتعدد الموضوعات التى انطرحت فى حينه معانها كانت تتمحور حول أساليب (النهوض بالامة) انطلاقا من تقدير حقيقى لامكانيه النضال فى هذا الاتجاه الذى اصبح تقليدا للبورجوازية المتوسطة فى الممارسة . ولذلك جاءت الصياغة بناء على موقفين : **التوجيه** (سبق أن ألمحنا الى دور النخبة والشباب فى هذا المجال) والنقد الذاتى (بمفهوم العبارة). وسنرى فى الفصول التالية كيف أن التوجيه (خصوصا) كان يستلزم البحث فى مسألة السلطة السياسية لفرض اختيار نوعى . لهذا يمكننا ان نقول أن سنة 1948 بالنسبة لعلال كانت حاسمة فى عدة مستويات : اجتماعيا واقتصاديا وايديولوجيا . لكن التناقض الناشىء ما بين التنظير للمرحلة ، وبلوغ الاهداف الموضوعة لها فى المستويات المذكورة — بحكم وجود مراكز قوى أخرى عملت على الاستفادة من الوضع اكثر مما حاولت طليعة البورجوازية المتوسطة طليعة البورجوازية المتوسطة — كان باكثر من معنى واحد هو الذى سيعطى لآفاق التطور المقبل حجمه تماما . ومع ذلك يمكننا الاستخلاص بايجاز : أن القبول بالدور الوسطى — الذيلى كان **حتما قبولا بالتبعية** ، بل وتنظيرا لها كما سنرى ، وهو موقف وقفته البورجوازية الالمانية فى سياق آخر فى أواسط القرن التاسع عشر : لقد كانت تخاف من البرولتاريا الصاعدة ، قدر خوفها من الملكية البروسية ومن الاقطاعية والرجعية ، الى ان

بلغ بها الامر حد الاشتراك فى حل وسط مع الثورة المضادة .

الموضوع الثانى : بالنسبة للبورجوازية المتوسطة ذاتها . ونحن نسلم مبدئيا أن « جميع الصراعات السياسية انما هى صراعات طبقية ، وأن كل نضال تحررى طبقى برغم شكله السياسى بالضرورة (اذ ان نضال طبقى هو نضال سياسى) انما غايته ، فى آخر التحليل ، التحرر الاقتصادى » (59) . من هذا المنظور كان النضال الذى تزعمته البورجوازية المتوسطة يكتسب أبعاده الحقيقية فى **رهن** عملية الصراع الطبقى **بالتحرر** الاقتصادى الذى ظل مطمح شديد التماس بالحياة فى البلاد ، بل بما يطبع الحياة فى البلاد من قضايا فعلية : سيادة نمط الانتاج الراسمالى واطباقه على مختلف مرافق النشاط الاقتصادى (التجارى — المالى ..) بما فى ذلك مضاعفاته التى اربكت الصناعة الوطنية المحلية ، بالاضافة الى التبعية الاقتصادية وشروطها القاسية المملاة . فكانت أن ضمنت هذه العوامل ، بما حملته من شعور بالمصلحة القومية (ضد الاستعمار) والوطنية (ضد المستفيدين من الوجود الاستعمارى عموما ، انضاج عوامل الصراع الاجتماعى وتوجيهها بل وربطها بالمصلحة المباشرة للحركة الجماهيرية . وعليه فقد كان **المخرج الوحيد** لقيادة الصراع — ذلك كان بمفهوم طليعة البورجوازية المتوسطة — هو قيادة مجموعة من المعارك الجزئية تضمن السند الجماهيرى ، بقدر ما تضمن تجديد النفس النضالى ، احتكمت فى الاول والاخير الى تحقيق الاستقلال بما ينسجم والمطامح الوطنية الموقعة بالطبع بذهنية البورجوازية المتوسطة الطبقية . لكن التركيب المتناقض للحركة ذاتها جعل من الصعب جدا — خصوصا مع حدوث تغيرات عميقة عجلت بانفساح المجال لظهور تناقضات حزبية (بعد 1937) — ان تضمن هذه

الحركة وحدتها وتماسكها الضروريين لمواجهة عدو خارجي مما ترتب عنه احتكام طليعة البورجوازية المتوسطة الى مايبرر قيادتها المستمرة ودورها فى « النضال » على رأس هرم هذه **الحركة . فكان طرح مبدأ الاستقلال فى أوائل الاربعينات جوابا كامل الدلالات يمثل ما كان مشروع النظرية استخلاصا كامل** الدلالات أيضا . لكننا نحب أن نؤكد أن « **النضال التحررى** الطبقى » الذى ساهمت البورجوازية المتوسطة فى الدفع عبر مسيرة طويلة ، الى اختيار محدد (الاستقلال)، كان يتحرك ضمن النطاق الاصلاحى ــ البورجوازى . مما كان يعنى أن هذه العملية ستعجل بطرح اختيارات أخرى على الاقل فى أسلوب الممارسة ، لتوجيه النضال بما يلزم وظروف الصراع الطبقى (المقاومة المسلحة). من هذا نفهم لماذا رجحت البورجوازية المتوسطة فى البداية اسلوب العمل السياسى على غيره ، ولماذا فى مرحلة لاحقة تعثرت فى ترجمته الى ممارسة **فعلية . ان بروز التناقضات الثانوية فى غياب تنظيم سياسى طليعى يستفيد منها ويوظفها فى تحديد مهام المرحلة جعل الفئات الراديكالية فى البورجوازية الصغيرة تبرز فى حلبة الصراع وهى بمظهر الحامى الوطنى لطموحات الحركة الجماهيرية ، فتدفع به الى أبعد مدى مستخلصة منه ما يجوز أن نسميه بالتناقض الرئيسى فى سنة 1948 ، وبناء عليه برزت ضرورة المقاومة المسلحة كجواب على الاصلاحية والاستعمار فى آن .**

لقد ظلت الاهداف التى انطبعت فى ذهنية الجماهير ووعيها (التحرر الاقتصادى ــ الاستقلال ..) فاعلة فى مختلف مراحل النضال الوطنى، ولكنها كانت تبحث عن قيادة فعلية تغير بها مجرى الحياة الاجتماعية السياسية فى البلاد ، ولم تكن البورجوازية المتوسطة بقيادة تستطيع الالتزام بذلك الى آخر

الشوط ، مما فتح الباب فى وجه مختلف الاعتبارات التى لعبت دور تشتيت الحركة الجماهيرية فى النضال ، او باقل تقدير دور احتوائها او الوصاية عليها . ولذلك نستطيع ان نقرر أن تخلى طليعة البورجوازية المتوسطة عن السير بالنضال الوطنى الى مستقره الاخير — على الاقل فى حدود مطامحها الخاصة — لم يكن الا تعليلا بمراجعة شاملة لمواقف هذا النضال ، وتعليــلا اخر بافتراض ان (النظرية) هى المنطلق الحاسم (بعد الان) فى (النهوض بالامة) . وفى تقديرنا ان مفهوم (النهوض بالامة) هو بحد ذاته مرحلة للنهوض بمشاريع البورجوازية المتوسطة على حساب ابقاء الحركة الجماهيرية تحت وصايتها المباشرة ، ان لم نقل تحت وصاية الفئات الحاكمة فى البلاد وقتئذ . وهاهنا ما يظهر لنا أن (النقد الذاتى) فى واقع الامر كان مفروضا منه ان يعطى حلولا فورية تحت اى تعميم ، اكان نقدا ذاتيا يهدف استخلاص النظرية ، ام نقدا ذاتيا للتنظير لمرحلة جديدة (تميزت بالنهوض الجماهيرى العام) ستكون شديدة الارتباط بمصـــالح **البورجوازية المتوسطة . اتنقد الذاتى اذن ليس عملا فكريا بريئا وهو لا يمكن ان يكون كذلك ، انه لمزيد من التحديد برنـــامج البورجوازية المتوسطة المستخلص من نضال الحركة الجماهيرية** (= بما يجعلها تحت وصايته) **للتحرر الاقتصادى وبناء دولة الاستقلال (= التعادلية)**. **ولكنه برنامج — لاعتبـــارات شتى سنعود اليها بالشرح — وقع بشكل غير مباشـــر او (حتى) مباشر فى فخ الاستعمار الجديد ، ولم يعد بوسعه الا ان يبرر هذا الوقوع بعبارات وطنية فجة وسند سلفى شحيح وخلفية ليبرالية شاحبة** . لهذا كانت البورجوازية المتوسطة (منظرهــا الابرز علال) تفعل فى الصراع الطبقى الى حدود سنة 1948 من موقع **خصائصها الطبقية** الوسطوية : الاصلاحية والمساومة

كما عبرنا فى السابق . ونحن ندرك أن هذا الفعل عبر عن خصوصية معينة (المحدودية والسطحية) ولكن غناه (اذا جاز القول) انبثق من ظروف المرحلة ذاتها ، خصوصا وان السلطة السياسية كانت بيد فئات طبقية أخرى ، لم تقدر البورجوازية المتوسطة المراهنة عليها لضآلة حجمها الاقتصادى وبقاء مبادرتها السياسية ذيلا للتوجيه السائد فى سياسة الاستعمار والطبقات المتعاونة معه (الارستقراطية وممثلى البورجوازية الاحتكارية الفرنسية والبيروقراطية الادرية والعسكرية العليا المغربية والفرنسية وممثلى الملاكين العقاريين والفئات العليا من البورجوازية المحلية). وسيكون من الجلى أن التشديد على هذا الغنى (فى الصراع الطبقى) سيكتسب أهمية ديمقراطية بعد 1960 ، وسيكتسب أهمية ديمقراطية تقدمية قصوى بنزول التيار الراديكالى فى الحركة الوطنية بعد 1959 الى ميدان العمل النضالى .

ان الذى نود الخروج به ، هو أن النقد الذاتى بقدر ما حدد الملامح العامة اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا لبناء الدولة التعادلية لحساب البورجوازية المتوسطة وكوادرها النخبوية التكنوقراطية ، بقدر ما أعاد صياغة المهام الوطنية التى انحسر مفعولها فى الواقع بمجيىء الاستقلال المشروط تحت تأثيرات مختلفة أبرزها انطباق الاستعمار الجديد (الفرنسى/ الامريكى) على مختلف مرافق النشاط الحيوى فى البلاد، واستئثار الاوتوقراطية ـــ الكومبرادو بدور القائد السياسى الطبقى ... ولعله من الواضح أن حدود النقد الذاتى ما كانت لتذهب أبعد من هذه الصياغة الوطنية والقاصرة فى آن . وكان من المفروض أن يبدأ الصراع الطبقى دورته فى مستوى جديد تماما يستند هذه المرة الى بروز الدور الطليعى للطبقة العاملة المغربية وقيام

تحالفات جديدة ، لم تدخر اطليعة المنظمة لبورجوازية المتوسطة المغربية وسعها فى العمل على تفتيتها او العمل على الحيلولة دونها بمختلف الاساليب الممكنة . لقد انتقل الصراع من حدوده الوطنية الى آفاق الديمقراطية بالاحتكام الى شروط الواقع الجديد مباشرة .

الموضوع الثالث : بالنسبة للحركة الجماهيرية وآفاق التطور ، فقد عبرت سنة 1948 عن ميلها الواضح الى تجاوز اسلوب النضال السياسى انطلاقا من التعبئة التى قادها الخط الوطنى للمطالب المغربية العامة . وقد ظل هذا الميل محافظا جزئيا استنادا الى مختلف التأثيرات التى انوجدت عبر مسيرتها الطويلة باشراف مباشر من الطليعة (البورجوازية المتوسطة) وبمقدار ما أدخلت هذه الطليعة عناصر الوعى الوطنى الى صفوفها (صفوف الحركة الجماهيرية) بمقدار ما كانت تجعل هذا الوعى محصنا بايديولوجيتها السلفية الاصلاحية ، منعا لها من تقوية تطورها الذاتى فى اتجاه قد يكون مغايرا لاسلوب التوجيه المتمكن عموما . لكن ، اذا كانت الطليعة ... الخ . قد ساهمت بهذا بناء على تقديرها المضاد له ، فقد ساهمت بالمثل فى انضاج جملة من التناقضات كانت تتلبس بالثياب الوطنية عادة ، وما كان لها أن تظل كذلك مع تطور الصراع ضد الاستعمار المباشر ، وما كان لها أن تبقى كذلك مع دوام المحافظة ذات التكوين الاصلى فى الخط الاصلاحى فى مواجهة سياسة ومخططات هذا الاستعمار . وقد لمسنا من قبل أن ان وجود هذه التناقضات قد شق بعد 1937 الحركة الوطنية الى تيارات سياسية متنابذة احيانا ومتضامنة احيانا اخرى ، لكن حجم هاتين العميتين (التنابذ والتضامن) كان على علاقة حميمة بمراقبة التطور العام الذى كثيرا ما كانت الطليعة

السياسية للبورجوزية المتوسطة تبديه برغبة حقيقية فى استباق التطور او لجمه متى دعت ضرورة الصراع . ومن هنا نستطيع **أن نقدر ان (النقد الذاتى) فيه هذا النوع من الاحتكام الجريىء، اذ كان مقررا تها ان يستبق التطور العام ولجمه بمشروع الدولة التعادلية (60)، النسخه المشوهة من راسمالية الدولة التبعيه** . ونحن لان التناقضات ذات طبيعة مرحلوية ، وتتعلق فى الاصل بظروف الواقع ومحيطاته ومتغيراته ايضا ، فقد كان هذا الاحتكام مجرد اجراء نظرى فوقي ، استطاع أن يبدد على نحو ما خوف البورجوازية المتوسطه من صعود جماهيرى يتجاوز صلاحياتها النضالية كما كانت تتصدرها موسميا لكنه ليس بالتبديد الذى يشفيها من سنة التوقع التى درجت عليها . فكان ان تجرت السياسة الاستعمارية الرجعية بأدوات عملها الاستغلالية والقمعية، ماظل عبثا رهان الوطنية فى الوصاية على الحركة الجماهيرية واحتقار دور نشاطها السياسى ، و كانت صورته الحقيقية هى انبثاق الدور القائد الراديكالى للبورجوازية الصغيرة فى المدن واحتكامه الى أسلوب المقاومة المسلحة بعد 1953 بتجنيد واسع لجماهير الريف المغربى وادماجها فى خط النضال الوطنى الذى يحتكم الى القوة كأسلوب وألى التحرر الاقتصادى والسياسى الديمقراطى . . كهدف . ولقد كان مرجحا أن نهوض راديكالية البورجوازية الصغيرة بهذة الصورة سوف لن يتم الا من خلال تجاوز الاصلاحية (ولو باصلاحية جديدة) واحتضان المد الوطنى مع توسيع مداركه فى آفاق ارحب ، سيقود لاول مرة الى طرح مسألة السلطة السياسية من جديد فيما بعد . الا أنه من الاكيد ان هذا النهوض كان مشدودا هو الاخر الى التجريبية والنخبوية السياسيتين ، وسوف لن يتم له ارساء قواعده النظرية الا على

يد (المهدى بن بركة) رائد وشهيد التغيير الديمقراطى فى مغرب ما بعد الاستقلال المشروط .

لقد احببنا ان نوسع اطار المناقشة قليلا لكى ندلل على أمرين :

ا ـ ان (النقد الذاتى) الى هنا وفى مجال ما يخص الحركة الجماهيرية وآفاق تطورها عموما ، كان ينوى تاطيرها ضمن استراتيجية البورجوازية المتوسطة من خلال اقتراح اصلاحات اقتصادية وسياسية واجتماعية وتحديث فكرى . ولهذا برر التماثلية بالصراع الطبقى ، كما برر المساواة الشكلية بالاستغلال والسلفية الجديدة بالماركسية (وهى ترتبط عنده بالالحاد . الخ) . **وهذا جانب محافظته** على وجه التحديد . محافظة كانت ستمود على الحركة الجماهيرية من خلال اقتراح نظرية تلتزم النخبة بتطبيقها ما أمكن (ونحن هنا نجرب تقديرنا للامور فقط من خلال بيانات الاصلاحية) بآفة الاستغلال الراسمالى الوطنى لمناحى حياتها ونشاطها العام . ومع أننا نسلم بان هذا التوقع يجرى الان على نحو مباشر وضخم وحاد ، فان ظروف خضوعه للتوجيه الوطنى بمثل ما اقترحه (النقد الذاتى) كان سيعطل لا محالة ، لمنظوراته الاصلاحية دينيا ، عوامل تبلور الصراع الطبقى بمثل ما يحدث الآن فى صور مكشوفة . وهذه نقطة لا نحب ان نخوض فيها كثيرا ، لان امرها اصبح فى حكم المتجاوز بفعل التطورات التى تلت سنة 1960 خصوصا . ومع هذا فالنقد الذاتى لم يصبح بعد وثيقة تاريخية متحجرة ، على أعتبار أن معظم مناحى النشاط التى جسدها حزب الاستقلال نظريا وعمليا كان اتجاهها العام ، ان لم نقل الخاص ، يستوحى أصوله من هذا الكتاب الحيوى .(61)

ب ـ آن (النقد الذاتى) قد ساهم فى ارساء أسس التفكير

الوطني على نحو يستحق التنويه (= وطنية النصف الاول من القرن العشرين المغربي ، وكان اقتراحه بالصورة المنجزه قد صادف عقبات جمة ، خصوصا وان السيطرة الكولونيالية — وقد خصها علال بتشهير لاذع — كانت ترى فى نوع هذا الفكر تهديدا ضمنيا (ولم يكن صريحا بكل تأكيد) (62) لمصالحها المباشرة فى المغرب . هذا اذا لم نفترض بهذا القدر او ذاك انها كانت تراهن على اشراكه فى الوظيفة الايديولوجية والاقتصادية وغيرهما التى كانت تقوم بها . ومعلوم أن ميل السيطرة الكولونيالية هذا قد تقوى مع انتقال الراسمالية الى المرحلة الاحتكارية ضمن استراتيجية الامبريالية . (63) .

لقد كان علال الفاسى وهو يقترح النقد الذاتى فى ظروف المرحلة (سبقت الاشارة اليها) يقوم بتغيير أسلوب العمل الوطني من مبادرة مرحلية الى تخطيط استراتيجي . مما جعل من كتابه ((مانيفيستو)) الحركة الوطنية فى النضال الوطني التحررى . ولعله كذلك بمقدار ما هى عليه البنيات العامه فى البلاد من تخلف وتبعية . الا أن التنصيص على هذا لا يستلزم فى راينا اسباغ دور كبير على عمل متواضع ومحلى بالدرجة الاولي ، لم يكن همه الا تسطير أسلوب عملي ، يكون لتوظيفه بأدوات النخبة والتكنوقراطية ، نتائج مضمونة على التطور المستقل للطبقات الوسطى فى المجتمع المغربى . ومعنى هذا ان استفادة البورجوازية كانت حقيقة مؤكدة ، بينما كان مقدرا لغيرها من الطبقات المحرومة فى المجتمع أن تندمج بالتبعية فى فلكها ما لم تدفعها التناقضات الداخلية الى وعى مصلحتها الطبقية المستقلة . لكن الشيء الذى يستحق التقدير فى راينا هو أن (النقد الذاتى) ظل متمسكا بمحتواه **الطبقى الوطنى** ولم يشذ عنه فى التوجيه الى ما يستوجب تبرير دور الامبريالية

فى (النهوض بالامة) مثلا ، وبعبارة أخرى أن الخطوات التى اقترحها النقد الذاتى التطور المستقل فى المغرب ظلت تبريرا دينيا وليبراليا فى آن للمشاكل المطروحة ، ولكنها م ترتبط — نظريا — بأسلوب ديكتاتورى فاشى او امبريالى — ملحق فى الانجاز . لقد ظل حضورها على قيد الوطنية — وهذا أعتبار مهم — مشروطا فى المرحلة بالواقع الاقتصادى والاجتماعى الذى انطلقت منه البورجوازية المتوسطة فى اقتراح المذهب « فى أدق معانيه وبأكثر تفاصيله حتى يتاح لنا ارضاء امتنا بتحقيقه دفعة واحدة ، فنحصل بذلك على ايمان من الشعب بنفسه ونظامه وحكومته فى عهد الاستقلال » (الكلام لعلال الفاسى)

ان هذه الخلاصة تربطنا من جديد بما حاولنا أن نقيم الدليل عليه ما مرة فى ثنايا هذا العرض . ومن المهم فى راينا بما أن النظرية كانت مرحلة فى تطور فكر علال الفاسى والبورجوازية المتوسطة بالتبعية ، من المهم كما نقول أن نعالج أهم نتائج هذه النظرية ، حتى يتسنى لنا بمزيد من الوضوح استنتاج حكم اولى على خصائصها والافاق التى انوجدت فيها فيها بعد عشرين سنة أو يزيد من التطور الذى حصل فى الوطن الذى رشحه علال ليكون نموذجا لها .

المعالجة الاولى : **ان سنة 1948** على وجه التقريب ، **هى السنة التى شهدت ميلاد اختيار ضرورى وملح انبثق عن الممارسة ليضبط الممارسة** : النظرية + النقد الذاتى . وكانت **الضرورة** هذه قد استخلصت **وجوب** رسم آفاق التطور للمغرب « المستقل » ، وهو رسم احتكم الى اختيارات الفكر الاصلاحى — البورجوازى ، ثم جاء فى صورتين :

اولا : مرحلى : ينطلق من الواقع الموضوعى ويجيب على محاور الصراع فيه : الاستعمار اولا ، والحركة الجماهيرية

ثانيا : وبدون شك كان يجيب أيضا على محور ظل الى هذا الحين مندمجا فى البنية الكولونيالية ، ونقصد على وجه الدقة : الفئات العليا من ابورجوازيـــة (= الكومبـــرادور ؛ والبيروقراطية الادارية والملاكين العقاريين الكبار . ولقد افترض علال — انطلاقا من مسلمة الوفاء للعرش الملكى — ان المهمة الوطنية تستلزم اولا تحقيق الاستقلال بما يعود على « الامة » بالتحرر ، دون أن يتوقع مصدر الخطر الكامن فى ((نظريته)) من استبدال استعمار باستعمار . مما سيعجل بالملموس بوضع هذه (النظرية) فى (ارشيف الامانة الوطنية) ليس آلا . مع أنه فى وسعنا الآن ان نلاحظ كيف ان تطورا من هذا النوع كان قيـــد البحث ، وهو قد وجد حلوله المرضية فى (ايكس ليبان) على نحو ضمن فى المرحلة الاولى وضع التشريعات الملزمـــة لاستقـــلال مشروط . اما علال فكان يراهن (فوق ذلك) على وضع الاسس المادية للتطور من منظور فكره الاصلاحى بتحقيق هذا النوع من الاستقلال وجعله منطلقا . ولذلك جاء اسلوب مباشرة (النقد الذاتي) لهذا العمل المرحلى ومستويات الصراع فيه ، مقرونا باستنبات وعى جديد كان مطروحا عليه ان يغير ولو فى حدود ضيقة ، شكل البنيات الفاعلة فى التطور الاجتماعى :

1 — العناية بتثبيت دعائم العائلة . 2 — مقاومة البغاء والادمان على المسكرات والمخدرات . 3 — اعطاء المراة مـــا تستحقه من مكانة فى المجتمع وفى الاسرة . 4 — تحريرها من قيود الاعراف الجاهلية التى يدعمها الاستعمار فيما يسمونـــه مناطق العرف البربرى . 5 — اعادة النظر فى كثير من الاعمال الشرعية نظرا لانقضاء موجبها . 6 — مقـــاومـــة العوامـــل

الاقتصادية والسياسية والاجتماعية غير الضرورية التى تحمل على الهجرة من القرية الى المدينة . 7 — العمل على توطيد دعائم البيت وحفظ اركانه . 8 — تدريب الجمهور على مهنة الابوة والامومة والتوجيه والتعليم . 9 — الاهتمام باليتامى وأبناء الشعب . 10 — الاهتمام بتقوية النسل وحماية الطفولة . 11 — اعتبار التعليم والتهذيب والتدريب على كسب الرزق . 12 — تعريب التعليم وتديينه . 13 — جعل التعليم اجباريا فى الابتدائي والثانوى . 14 — توحيد التعليم باعتبار المناهج وتنويعه باعتبار البرامج . 15 الاهتمام بالتعليم المهنى العام والخاص . 16 — وضع تصميم صحى لتحسين حالة المواطنين . 17 — تجديد الجهاز الاجتماعى المغربى . 18 — مغربة النقابة واعتبارها فى الميدان الاجتماعى بمنزلة الحزب فى الميدان السياسى وقد اضاف علال الفاسى قائلا « تلك هى اهم النقط التى تستدعى فى نظرنا عناية عاجلة لاصلاح مجتمعنا المغربى (64) ».

من الواضح أن هذا الاصلاح كان يستهدف وضع الاسس الفكرية والاجتماعية ، التى بدت مطلوبة أكثر من غيرها . مما يعنى ان البرنامج المرحلى فى النظرية ، كان موثوقا كما أسلفنا الى الضرورات الملحة والعاجلة فى التطور الذى يجرى فى البلاد . **لقد اراد علال بعبارة أخرى ان يعطى للبورجوازية المتوسطة فى هذا الميدان بالذات دور « المصلح الاجتماعى » الذى نضج وعيه فى المرحلة الكولونيالية ، ليقيم دعائم البناء الاجتماعى الثابث فى المرحلة الاستقلالية .**

ثانيا : استراتيجى : وينطلق من الخطاطة العامة للتطور المفترض (الذى يفضى للنهوض ...). وما كان يمكن الجواب على مشروع فى طى الافتراض الا بوضع خطوط عامة تنسجم

مع الاختيارات الطبقية الاصلاحيــة للبورجوازيــة المتوسطــة (= علال). وفي هذا الجانب لم يكن بوسع علال الا أن يستند الي تأملاته الفكرية التي كانت تلعب بها مصادر فكرية مختلفة وأحيانا متعارضة فضلا عن انها متباينة ، وهي **تامــلات كــان متروكا على المدى البعيد أن تفرز دور الطبقات الوسطى في المجتمع وتقيم جسور التواصل مع طريق النمو الراسمالي تحت** شكل دولة تعادلية لها أسس اقتصادية واجتماعيه ما كان لها أن تقوم من قعدتها الا بالدعم الامبريالي ، مهما كانت الاعتبارات الوطنية والنوازع الاخلاقية التي يمكن أن تقف من هذا الدعم موقف المعارض ، ولربمــا المعارض الشكلي .

المعالجة الثانية : لقد عمقت نظرية علال واقع التبعية من حيث أرادت القضاء عليها ، ومن المفيد ان نرى ان البرنامج الذي ظهر لنا انه يجيب على نوعين من المهام المطروحة (مرحلية واستراتيجيــة) **قد ترك مرحلة انتقالية بغير جواب يذكــر** . (= السلطة السياسية لمن ؟؟ — هذا هو السؤال) خصوصا وأن التطورات السياسية بعد 1948 ، تسارعت الى حد أن اشتعلت المقاومة المسلحة وانبثق عنها مد جماهيرى متعــاظم جاء الاستقلال نابطن مفعول استمراره . فكان لابد للطبقات والفئات الملحقة بالوجود الاستعماري في المغرب ان تعمر هذا الفراغ الانتقالي بما سيصنع مع التطور قاعدة احتكمت الى هذا المــد الجماهيرى المتعاظم نفسه والى اطروحات البورجوازيــة المتوسطة نفسها ، لكنها سرعان ما طرحتها جانبا لتتلاءم مع اختياراتها الطبقية التي كانت في حاجة ماسة الى حليف موضوعى بمجل بارساء قواعد الحصانة السياسية والاقتصادية (التخلف والتبعية) ضد أى تطور مستقل آخر . ان الفراغ الانتقالي (كما نقترح التعبير عنه) كان نتيجة وليس سببا بهذا المعنى،

وبناء عليه برز اول الامر دور الاوتوقراطية (النــواة المركزيــة المهيمنة سياسيا) فى امتصاص ظروف التطور عموما وجعله خاضعا لتحالفات مرحلية سنرسى الخطوات الاولى فى وضع البلاد فى قبضة الاستعمار الجديد . وفى اعتقادنا ان الفــراغ **الانتقالى هو مصدر سلطة الطبقات السائدة فى المجتمــع منــذ أواسط هذا القرن ، بايحاء غير مباشر من الطبقات الوسطى الضعيفة فى البلاد ، وفى غيبة مباشرة لتنظيم سياسى ثـورى يقود الجماهير عشية الازمة الى مرحلــه الثــورة الوطنيــة الديمقراطيه** . ومعنى هذا ان نظريه علال « بأرق معانيه وباكثر تفاصيلها » كانت على المستوى الاستراتيجى مجرد حكم أولى على الصراع الطبقى فى البلاد بما يقفز عن معطياته ، وهــو حكم خاطىء ومبتسر قدر له أن يحتمل مختلف التأويلات التى اسقطتها الطبقات المستغلة عليه بتحايل ووعى واستنادا الى مصلحــة واضحــة فيه .

والحال لقد كانت اختيارات طليعة البورجوازية المتوسطة ذات افق وطنى ، ولكن سقطات هذه الاختيارات كانت نافذة المفعول بالنسبة لغيرها من الطبقات المستفيدة من الاستغلال الاجتماعى والاقتصادى ، بما أوقعها (أى البورجوازية المتوسطة) فى **لعبة المعارضة السرمدية** لتوجهات احتكمت الــى السلطــة أولا وقبل كل شىء . ولقد سبق ان لاحظنا ان البورجوازيــة المتوسطة اذا كانت قد اعلنت نفسها الطبقة السياسية الاولى قيادة على امتداد المرحلة الوطنية ضد السيطرة الكولونيالية، فهذا بالضبط ـــ لانها لم تستطع أن تجد سبيلا مستقيمالطموحاتها الاقتصادية فعليا ـــ ما أوقعها فى حساب خاطىء ومعوج ، فراهنت بقدرتها على التنظير السطحى علــى الاستقــلال ، ولكنها لم تراهن على قواه الاجتماعية . ذلك بالضبط أيضا غداة

ان اصبح هذا الاستقلال امرا واقعا برغبة الاطـراف التـى ستستفيد منه . والنظرية هنا بالذات كانت قاصرة وذيلية لمختلف التطورات . لقد انجز علال نظريته من تأمل ارتكز على الماضى فى المحاسبة النقدية ؛ وهذه نقيصة اصلاحية ؛ وكان عليه — لو قدر له ان يعى طبقيا أبعاد التطور الـذى انتهت اليـه « التجربة المغربية » ؛ ان يقوم — بالحق — بعملية مركبة ، عملية نقد النقد الذاتى أو شىء من هذا القبيل . وتجنبا للمبالغة نستطيع أن نجزم حالا بأن ذلك لم يكن من مهام البورجوازية المتوسطة ، اذ بانفتاح الصراع على طور جديد برزت قـوى اجتماعية راديكالية ، ستكون الخطوة التى اقدمت عليها فى 1959 مبررة بهذا العجز النظرى الملموس الذى طبع مسيـرة علال النظريـة .

المعالجة الثالثة : ان الاستقلال المشروط عام 1956 كان بداية مرحلة من التحالفات الطبقية احتكمت الى معطيـات اقتصادية واجتماعية وسياسية ناجزة . ويهمنا أن نرى دور البورجوازية المتوسطة وهى تخسر أوراقها الدعائية تباعا ، مما نجم عنه — وهذا فى علاقة مع ممارستها السياسية بعد 1960: المشاركة فى الحكم — انفتاح المجال الدستورى أمام مبادرتهـا الوطنية — انجازاتها المتواضعة فى الميدان التشريعـى .. — بلوغها حدا من النضج السياسى جلعها تركن الى المعارضة البرلمانية كاسلوب تحكيمى أرقى تستطيع أن تختبر به قدرتها على تبنى المشروعات (نظريا) التى تكفل (للامة) نهوضها ورقيها . ولعل هذا الطور كان من توجبه آخر ورقة تلعب بها طليعـة البورجوازية المتوسطة ؛ فى واقع كان الصراع فيه يتمخض عن انقلابات مكثفة تلاحقت بسرعة وفعالية (1963 — 1965) حتى لا تذكر غير الامثلة البارزة ..) ابانت مجددا عـن طبيعـة

التحالفات التى يجب ان تعضد مسار الحركة الجماهيرية بغية نيل مطالبها الديمقراطية .

ولنا ان نلاحظ أن البورجوازية المتوسطة عجزت بطريقة مهذبة (= المعارضة البرلمانية) عن تجاوز افقها الوطنى او تجذيره بما ينسجم وهذا التطور مما زج بها فى المعترك السياسى وهى على نحو شديد من المحافظة الايديولوجيــة ، اصبحــت رجعية سافرة فى ظرف وجيز . وكان هذا التطور على كل حال هو الاعلام المباشر بافلاس المحتوى الوطنى الماقبل ديمقراطى — ثورى فى نظرية النقــد الذاتــى .

من هنا نرى لكى نحكم بشكل واضح على هذا الافلاس ضرورة تحديد خصائص هذه النظرية بشىء من الدقة والايجاز بالصورة التاليــة :

الف : فهى نظرية وطنية ، رغم ان النزعة الانتقائية التى تحكمت فى صياغتها كانت أبرز من وثوقها الى اسلوب وطنى دقيق فى فهم طبيعة الصراع ومحتواه . انها وطنية بمقدار مــا **جعلت من الاستعمار المباشر التناقض الرئيسى الذى حكم التطور التاريخى فى المغرب على امتداد نصف قرن . ولعل ادانتها لهذا الاستعمار كان هو الشكل الارقى نظريا وعمليا للممارسة فى** فترة 1948 . ولكن فعل التطور اللاحق الذى لم تستطع الجواب عليه — وقد رافقه انتقال الاستعمار المباشر الى شكل ارقى من السيطرة ضمن مخطط الامبريالية — افقدها طابعها الراهن (= الوطنية) فجعلت تبنى خططها استنادا الى الفكر الدينى (السلفية الجديدة) ايديولوجيا والى المــعارضة البرلمــانية سياسيا والى التمادلية (تمييع الصراع الطبقى) اقتصاديــا واجتماعيا . وهى مكونات اصيلة فيها ، مما اوقعها فى المثالية

(ايديولوجيا) والذيلية (سياسيا) والتنظير للطريق الراسمالى فى النمو (اقتصاديا واجتماعيا) ..

بـاء ـ لقد كانت النظرية فى جانب كبير منها ردا مباشرا **على الفكر الماركسى** ، ولذلك فهى قد اختارت للهجوم بادوات **مفلولة ، منطقة علمية** ، كان من الصعب على علال أن ياتى بجديد يذكر فيها . لقد راى علال خصمه الماركسية من منظار ايديولوجى ـ دينى بحت ، ولذلك اندفع فى (كتابه النقد الذاتى) يضرب فى اتجاهات متعددة ، خصوصا فى المجال الاقتصادى ، ظنا منه أنه يقوض مذهبا ليشيد مذهبه عليه ، ولكنه انتهى الى تكوين انشاء وصفى ذاتى لرؤية تطور المجتمع المغربى من منظور مثالى .

جيم ـ كانت نظرية (النقد الذاتى) محكومة بالضعف العام للتكوين البورجوازى فى المغرب : التخلف والتبعية فضلا عن أن مكونات الفكر الاصلاحى ـ السلفى كانت قد فعلت فيها على نحو «لاهوتى» (اذا جاز القول)، فعمق التفكير فى الماضى ولم يخرج منه الا بمشروع عودة جديدة اليه . وعلى هذا النحو كان « الماضى المستقبل »، هو القياس الذى جربه علال لاحتبار سقط المتاع السلفى ، وقد سبق أن استخلصنا أن فى ذلك عودة بالراسمالية الوطنية الى مرحلة العدالة الاجتماعية ، مما جعل من النظرية وكأنها تعميق للتخلف والتبعية فى البلاد ، واذا وسعنا الاطار قلنا فى (العالم الثالث).

دال ـ لقد اراد علال بنظرية النقد الذاتى أن يرسم الطريق « الثالث » بين الاشتراكية والراسمالية ، وهى محاولة تمويه مقصودة لتغطية الاختيارات الراسمالية بما يجعلها حيادية أو مفارقة .. أو ما فوق طبقية أو على هامش الصراع العالمى الى ... آخره . وقد رأى Jalée بأنه « لاوجود بالنسبة لدول العالم الثالث سوى طريقين : الراسمالية التى

انتقلت الى المرحلة الاحتكارية ، وهي تكرس وتقوى تخلف تلك البلدان ، أو الاشتراكية ، التى تستطيع وحدها أن تفتح لها أبواب التقدم . ولا وجود لطريق ثالث » (65).

هذه بعض الخصائص التى نظن أنها كانت مؤثرة أكثر من غيرها فى التاريخ الذى كان وراء النقد الذاتى ، ونستطيع أن نلاحظ الآن كيف أن تطور البورجوازية المتوسطة الذى ارتبط بالسيطرة الاستعمارية المباشرة ، لم يعمل على مدى نصف قرن تقريبا الا على انجاز نظرية لتبرير الواقع المغربى الحالى وظروف تبعيته للامبريالية . ونحن لا نريد أن نعمق هذه الخلاصة حاليا، لذلك نرى من المفيد أن نقف عن نقطة أخيرة فى هذا الفصل:

لقد عبر (Yves Lacoste) عن اندهاشه عندما لاحظ « الفارق القائم بين بعض المقاطع فى المقدمة (ابن خلدون) : فقسم مزدان بأروع **انطلاقة عقلانية** ،والاخر مشوب **بابرز ظلامية صوفية** » (66) . وبعد ستة قرون على وجه التقدير (منذ القرن الرابع عشر) تبدو هذه الخلاصة ذات معنى فى سياق بحثنا . فعلال الفاسى لم تفته الاشارة فى كتابه (النقد الذاتى) الى مأثرة ابن خلدون حين أنجز المقدمة مؤكدا « لقد كان ابن خلدون أول من ابتكر علم الاجتماع ولو أن المسلمين استفادوا من ابتكاره وواصلوا العمل فى هذا الاتجاه الذى وضعه أو غيروه أو أصلحوه ، لكان حالهم اليوم حال شعب راق متعلم » (67). وهى اشارة ذكية تفيد لدينا ما كان علال يراهن عليه — اقتداء بابن خلدون — ولو فى ظروف مغايرة كليا من تفسير عقلانى مشوب هو الاخر « بابرز ظلامية صوفية» مثالية وذاتية . وهذا بالذات هو جوهر التناقض فى صميم الفكر الاصلاحي/السلفى/البورجوازى وفى نظريته : النقد الذاتى.

— انتهــى —

ملاحظة : انظر نصوص الوثائق بعده

النص الاول :

جماعة « لسان المغرب »

« ... بما أن الوقت قد دعا الى الاصلاح ، والشبيبة المصرية قد هللت قلوبها وانشرحت صدورها له وجلالة سلطاننا الجديد (عبد الحفيظ) يعرف لزومه ، فنحن لا نألو جهدا فى المناداة بطلبه على صفحات الجرائد من جلالته ، وهو يعلم أننا ما قلدناه بيعتنا واخترناه لامامتنا وخطبنا وده رغبة منا وطوعا من غير أن يجلب علينا بخيل ولا رجال ، الا أملا أن **ينقذنا من وهدة السقوط التى أوصلنا اليها الجهل والاستبداد** ، فعلى جلالته أن يحقق رجاءنا وان يبرهن للكل على أهليته ومقدرته على ترقية شعبه وعلى رغبة فى الاصلاح وجدارته بادارة ما قلدته أمته ، والذى نرجوه منه أولا وقبل كل شىء هو فتح المدارس ونشر المعارف ، وان يكون التعليم الابتدائى اجباريا ، وان يولى ذوى الكفاءة والاستحقاق والاهلية ، يقرب اليه ذوى العقول الراجحة والافكار الحرة الراقية ، وليتحرز من الوشاة والجواسيس الذين يشوهون له رعاياه ويحولون بينهم وبينه ، وفى بلاطه الشريف ، من هذه المكروبات القتالة جيش كبير ، فان لم يحترز منها ويقاومها نقلت اليه جراثيم موبئة معدية ، وبما ان يدا لا تقدر على انهاض شعب من وهدة السقوط ، ولا على اصلاح ادارة مختلة كادارة حكومتنا ، فيجب أن تكون الايدى المتصرفة، والعقول المفكرة والافكار المدبرة ، كثيره متكاتفة على العمل . **وعليه فلا مناص ولا محيد لجلالته أن يمنح أمته نعمة الدستور ومجلس النواب واعطاءها حرية العمل والفكر لتقوم باصلاح بلادها اقتداء بدول الدنيا الحاضرة المسلمة والمسيحية .** والدول الحاضرة يوم كانت مستبدة وسلطتها مطلقة لم تكن لها

كلمة مسموعة ولا ما يدل على أنها دول قديرة ، وحيث خلص الله تلك الارواح من شبكة الاستبداد والرق ، نهضت تلك الدول من وهدة سقوطها وتنقلت فى أطوار الكمالات حتى وصلت اليوم الى ما وصلت اليه **وكفى حجة على هذا امة اليابان ، تلك الشمس المشرقة فى آفاق آسيا** التى كانت فى مؤخرة الدول قبل اربعين سنة ، واصبحت اليوم فى مصاف الدول العظيمة ، وانتصرت ذلك الانتصار العجيب على دولة من أعظم دول العالم (روسيا)، وغير بعيد عنا الانقلاب المجيب الذى حصل فى دولة تركيا العلية اثر منح جلالة أمير المؤمنين لشعبه الدستور وامره يجمع مجلس المبعوثان ، فعسى أن نقتدى بهم ونقوم بخدمة بلادنا ، ونسعى جهدنا فى اصلاح حالتنا ... »

مصدر :

لمحات من تاريخ الحركة الفكرية بالمغرب تاليف احمد زياد ص 15 دار الكتاب 1973 الدار البيضاء .

النص الثانى :

الوقف من حل « كتلة العمل الوطنى »

« هال بعض المغرضين الذين لا يريدون بالامة خيرا ، الاقبال العظيم على الانخراط فى كتلة العمل الوطنى من عامة الشعب المغربى وساءهم أن ترتكز هذه الهياة الموفقة فى وسط الامة ارتكازا لا تؤثر فيه الزعازع ولا الاهواء ، فعادوا لما كانوا عليه من الدس والايقاع واختلقوا على الكتلة ورجالها اراجيف ومفتريات ، وصوروا للحكومة أن الغاية التى نصبو اليها ونعمل لها هى غاية ترمى للتنقيص من النفوذ المخزنى والخروج على السلطات المشروعة ، وأن حركتنا لا تعمل الا لمعاداة الامة

الفرنسية وممثليها . ومع أن هذه المختلقات ليست شيئا جديدا بالنسبة لما تلوكه السنة الخائنين ويفوه به فـم الدسـاسين المغرضين ، بل هى تهم وجهت الينا مرارا والصقت بنا تكرارا واعلنا براءتنا منها سرا وجهارا ، مع ذلك ، فانها ما زالت تجد من بعض المسؤولين أذنا صاغية تستمع اليها ، وقلوبا تطمئن للعمل بمقتضاها . ومن عظيم الاسف أن يكون لها مفعول فى **قرارات الحكومة وتدبيرها وان تحمل ممثل فرنسا على اتخـاذ موقف خطير ضد حزب الامة الوحيد وكتلتها الامينة فى وقت تمد الامة يدها للتعاون مع سعادته على تحقيق مطالب الشعب المغربى وامانيه ، وفى وقت تشرف فيه على فرنسا حكومـة الواجهـة**
وامانيه ، وفى وقت تشرف فيه على فرنسا حكومـة الواجهـة
الشعبية التى تمثل المبادىء الديمقراطيه ومثلها العليا ، وفيه برهة تشتد فيه على الشعب المغربى أزمات سياسية وروحية ونكبات مادية وجسمية ، فيقف موقف المنتظر لسياسة رشيدة تفتح امامه مجال الحياة الناعمة .. وتخرج به من سياسـة قديمة كشفت الايام افلاسها فى حل المشكلات وعجزها الواضح عن رفع المعضلات ، ولكننا نضطر — بالاسف — الى أن نعلن لامتنـا حقيقة مرة ، وهى انه ما يزال لهذه السياسة عملهـا وما يزال لهذه للاختلافات مفعولها البين وأثرها الكبير فى تسيير الادارة المغربية وتحريك دولابها .

فبينما الامة وزعماها ينتظرون ما يؤوب به سعادة المقيم العام من تمتيع بالحريات وارضاء الحاجيات ، اذا بمجادته يحل يوم الخميس خامس محرم موافق 18 مارس بمدينة فـاس ، وبعدما قابل الذوات الرسمية وبعض العلماء الموظفين واعضاء المجلس البلدى والغرفة التجارية ، استدعى اليه بعض رجال العمل الوطنى وبمحضر من سعادة الجنرال بلان ، حاكم الناحية الفاسية ، قابلهم فى قصر البطحاء وبلغهم بصفة رسمية ان قرارا

وزاريا تحت الطبع يقضي بحل مؤسستكم العظيمة كتلة العمل الوطني واقفال ما فتحته من مراكز وفروع ، وأن مستند الحكومة فى ذلك هو الاخبار المتعودة التى وصلتها وللتقارير الكثيرة التى بلغتها حول الخطوة التى خطتها كتلتنا ، وكلها تتهمنا بالخروج عن جلالة السلطان ومعاداتنا للحكومة الفرنسية وعملنا لاحداث انقلاب ثورى خطير (...) وقد اجبنا على هذه التهم كلها بما يقتضيه المقام وعرفنا سعادته بانها مجرد اختلاقات وأكاذيب مصطنعة لا اصل لها ، واننا لم نتخذ قط تحية رسمية لا على النمط الفاشى ولا على غيره ، ولا نظمنا شيئا من التشكيلات التى يشير اليها ، **وان وطنيتنا وطنية مخلصة للعرش المغربى وللعائلة المالكة ولا تحمل عداوة للشعب الفرنسى** (...) وفى مساء ذلك اليوم ، اجتمع رجال الكتلة ، وبعد النظر فى المسألة ودراسة الموقف الحاضر اتفقوا على ما يأتى :

بما أن البلاد المغربية فى ظروف شديدة من البؤس والجوع والمطامح الروخية ، وبما ان رجال السياسة المتبعة من طرف الادارة المغربية لم تصل لحد الان لما يحل هذه المشكلات التى تزداد الا تعقدا ، وبما أن بعض رجال هذه الادارة يريدون خلق اضطراب وقلاقل تيسر فشل السياسة المتبعة بالمغرب وعجزها عن ارضاء الطموح المغربى متذرعين لذلك بمختلف الوسائل ، وبما ان سعادة المقيم ما زال يصرح باستمداده لتعاون ويخبر بان له عزما قويا على تحقيق اصلاحات مهمة . وبما أن كتلة العمل الوطنى هى فكرة ومبدأ زيادة على كونها جماعة من الناس ، بناء على ذلك كله ، فلقد اتفقت هذه الجماعة على هذه الخطة : رفع احتجاج قوى وصريح للحكومتين المغربية والفرنسية على هذا التدبير المنافى للحريات — فتح مخابرة مستمرة مع الحكومة فى شأن رفع هذا القرار وبذل المساعى

اللازمة لذلك ــ مواصلة العمل بمختلف الوسائل المشروعة لتحقيق مثل الوطنية المغربية العليا وانجاز مطالبها العادلة ..»

مصدر :

صحيفة « الاطلس » العدد 26/6 مارس 1937
نقلا عن : لمحات من تاريخ الحركة الفكرية بالمغرب . تأليف : احمد زياد ص 45 وما بعدها .
دار الكتاب 1973 ــ الدار البيضاء .

النص الثالث

« حاجتنا الى التخصص الادبى » / علال الفاسى

« ... ان الثورة الفرنسية لم تكن نتيجة مباشرة للظلم والارهاق اللذين كانا سائدين فى فرنسا كما يظن كثير من الناس ، ولكنها كانت نتيجة للهيب الاحساس الذى اوقده **أدب ما قبل الثورة ، نتيجة للافكار الجديدة** التى ولدها **الظلم فى رجال من الثقافة الادبية ما عرفهم كيف يفكرون وكيف يحكمون .**

ان مونتسيكو وفولتير وديدرو وبومارشيه وروسو وغيرهم من عباقرة الامة الفرنسية هم الذين كانوا رجال المال ولا رجال الحديد . وفكر هؤلاء وأدبهم الراقى المتين هما اللذان ولدا **الثورة الفرنسية التى بعثت تلك الامة من مرقدها وعلمتها كيف** تحكم نفسها بنفسها فى جميع ميادين الحياة السياسية والمالية **والفكرية . فاذا شئنا أن نكون فى أمتنا رجالا يقومون بالبعث والاحياء فعلينا أن نهيىء الناشئة الوسيلة التى تمكنها من التثقيف** الادبى ، أى التى تعلمها طريقة التفكير والحكم وطريقة الاعلان عما تفكر به وما تحكم . والى اليوم الذى يتكون فيه هؤلاء

الرجال ، فان التخصص الادبى يجب ان يكون له الحظ الاوفر من الطلاب ، والقسم الاعظم من المساعدة .

تلك نصيحتى للطلبة ورغبتى للحكومة والجمعيات وأهــل القــراء .»

مــلــحــق :

الثقافة والنهضة / احمد بن المليح

« ... نحن محتاجون الى رجال يعرفون انواع الثقافة المختلفة تقوم على عواتقهم نهضتنا المباركة ، فيتداركون النقص الــذى اصاب كثيرا من نواحي حياتنا (...) نحن محتاجون الى رجال فلاحين درسوا الفلاحة على الاسلوب المصرى فيطورون الفلاحة المغربية وينهضون بالفلاح المغربى حتى يلحق المعمر الفرنسى الذى تولي بلاده وعرف كيف يستخرج خيراتها .. ومحتاجون الى رجال صناعين يتداركون الصناعة المغربية التى أشرفــت على الاضمحلال ويحيون مواتها ويدخلون عليها شتى الاصلاحات العصرية التى تجعل الصانع المغربى ينتج بسرعة منتوجات راقية تدفع عن نفسها غزو المنوجات الاجنبية ، ومحتاجون الى مثل هؤلاء الرجال فى التجارة والمحاماة والطب والقانون والميكانيك وغير ذلك من انواع الثقافة هى ضرورية فى نهوض شعب ظل زمنا طويلا ساكنا لا يتحرك ...

لكن قبل ان نوجد هؤلاء الرجال ، يلزمنا ان نتعرف هــل هناك فى الشعب استعداد لقبول ما ياتى به هؤلاء الرجال مــن انواع التجديد ..؟ وهل شعبنا قابل لان يسير فى الطريق التى يرسمونها له وان يتطور مع العصر ..؟ ونحن اذا بحثنا نجد **ان عقول شعبنا لا تزال جامدة وان النور لا زال لم يصل اليها**

ومن الصعب عليها ان تقبل على هذه الحياة الجديدة (...) حتى تصير مهياة لان تسلك المنهج الذى يريد هؤلاء المصلحون ان تسلكه . نحن محتاجون الى هؤلاء قبل أن نكون محتاجين الى أولئك ، ويلزمنا فى نهضتنا أن نقطع هذه المرحلة (مرحلة غزو العقول وإنارتها) لنصل بعد هذا الى مرحلة تطوير الشعب ورقيه ، وإلا كان ما نفعله قضاء على نهضتنا ورد فعل لجهادنا الطويل ...»

مصدر :

- النص الثالث نشر فى « الاطلس »/ العدد 4 1937
- نص أحمد بن المليح نشر فى «الاطلس » العدد 16 نقلا عن : لمحات من تاريخ الحركة الفكرية بالمغرب .

تاليف : احمد زياد ص 77 و 79 . دار الكتاب 1973 — الدار البيضاء .

هوامش :

1 — كان الشريف الادريسى قد لاحظ فى القرن العاشر الميلادى أهمية المبادلات التجارية مع السودان مما حدا به الى القول من المعاربة « تجار مياسير يدخلون الى بلاد السودان باعداد الجمال الحاملة لقناطير الاموال من النحاس الاحمر والملون ، والاكيسة وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والاصداف والاحجار وضروب من الافاوية والعطر وآلات الحديد .. » انظر نزهة المشتاق ... ص 143 . وأنظر لمزيد من التفصيل فى معطيات القرن الرابع عشر بالخصوص حول نفس الموضوع : ابن خلدون (Yves Lacoste) ت : م. سليمان دار ابن خلدون 1914 ص 99 وما بعدها .

2 — عهد الحسن الاول رغم معارضة رجال الدين والبيروقراطية الاداريه والعسكرية الى تاسيس ما يشبه مدرسة مركزية للمدفعية (بالجديدة) وتوجيه المغاربة الى التدريب سريا فى أنجلترا واسبانيا وأمريكا أيضا. كما وجه بعثات الى فرنسا وايطاليا والمانيا من أجل التكوين العام والتكوين الهندسى العسكرى ، كما توجهت الى فرنسا بعثة مؤلفة من 12 مغربيا (24 يونيه 1885) صحبة (ميكيل دوكاسترو). وقد احدث جيشا دائما (500 جندى فى فاس — 600 فى الرباط وسلا — و 200 فى كل ميناء تجارى) كما عمد الى استيراد الاسلحة من الخارج (بلجيكا — انجلترا ..). وقد انشأ معملا للاسلحة الخفيفة (مراكش). وتجدر الاشارة الى ان عدد التقنيين الذين تواردوا على المغرب فى هذه الفترة كان كبيرا . نذكر منهم Erckmann Mac Lean وبعثة ايطالية (1887) وأخرى اسبانية (1890). كما حاول الحسن مد خطوط السكك بين فاس ومكناس . واصلاح الموانىء (طنجة)، ثم محاولة خلق شركة تجارية برأسمال مغربى . زراعة القطن والسكر (الحوز — سوس) احداث المطبعة فى فاس. حركة استغلال المعادن (الرصاص فى سوس) وقد سبق لمحمد الرابع ان درس مع الشركات الانجليزية مشروع انشاء بنك رسمى حكومى.

3 — قنصل برتغالى اسلم ودخل فى خدمة السلطان الحسن الاول .

4 — كانت قيمة صادرات الذرة الى البرتغال وانجلترا فى العهد الحسنى تقدر بـ 3 مليون فرنك . وكانت التجارة الخارجية تقدر فى مجموعها نحوا من 40 مليون ، وقد تولت شركتى Ferwod (انجليزية) Pacpuct (فرنسية) ربط موانىء المغرب بأوربا .

5 — كان الحسن الاول يملك 20 سيارة . وورد فى كتاب : كابريال 1905 dans l'Unité du Sultan أن عبد العزيز كان يباشر بقوة انواع الرياضات المستعملة فى الجيش البريطانى والتنس وكرة القدم ، وكان قصره يتوفر على آلة لصنع الثلج ، وقد جلب سكة حديدية للذهاب من قصره الى دار الدبيبغ (4 كيلومترت) ، وكان يلعب النرد . وقد وضع فى عهده أول خط تليفونى بمراكش ، وكانت له حديقة حيوان (جلبها المنبهى من المانيا) تشتمل على اربعة نمور ... وكان القصر يحتوى على 3000 ساعة زمنية . .

6 — يرى (A. G. Frank) ان البورجوازية فى أمريكا اللاتينية استطاعت فى فترة مبكرة من القرن الماضى من بروزها كقوة اجتماعية واقتصادية من قيادة (نهضة) التحرر ضد الاحتكارات الاسبانية . وكانت هى نفسها التى ساهمت فى مد خطط السكك بفعل من توسعها التجارى والاقتصادى (تسويق المعادن والمنتوجات الفلاحية) فى حين ساهمت

فى مرحلة لاحقة ، انطلاقا من هذا التطور الذاتى المستقل ، جـــر الامبريالية الى دعمها ، مع تناسى مفعـول الصراع الاجتماعـــى فى بداية هذا القرن أنظـر :

— Lumpen bourgeosie et Lumpen développement Ed. Maspéro 1971 - Paris.

7 — كانت الفلاحة فى القرن 19 هى الاهتمام الرئيسى لمعظم السكـان . وكانت معظم الاراضى جماعية بسبب من ظروف المناخ وفقـر الارض وانعدام الوسائل التقنية لفلاحتها على نحو عصرى ، بينما كـانت الملكية المتوسطة هى القاعدة (50 هـ . فى اقليم طنجة) . وما يزرع من الاراضى لايتجاوز 1/4 . وقد سهل التسلل الاوربى (1867) نمو بعض المزروعات (الكروم والحوامض) وخصوصا فى المناطق الشاطئية كما كانت الصناعة التقليدية هى الشكل الرئيسى للانتاج ، وقد تضررت من جراء هذا التسلل ، كما أن الانتاجات المستوردة فرضت عليهـا مزاحمة مشروطة بطبيعة هذا التسلل نفسه . أنظر لمزيد من التوسع :

HISTOIRE DU MAROC - I. Boutaleb et autres. Hatier p. 304 et suivantes.

— L'ECONOMIE DU MAGHREB - S. Amin - Ed. Minuit 1966 - p. 47 et suivantes.

وخصوصا فى الفترة ما بعد 1920 (= مرجع سمير أمين)

وايضا : تاريخ المغرب (عبد العزيز بن عبد الله) الجزء الثانى . مكتبة السلام (بدون تاريخ) .

ملاحظة : سنعود الى ذكر المرجعين الاول والثالث مرارا فيما يتعلق ببعض المعلومات التاريخية . ولذلك نقترح على القارىء أن نشير الى بحرف H. M. والى ثانيهما بحرف (س . م .) —

8 — مثال : الحاج محمد بن الطاهر الزبدى . وسبق له ان كان على رأس البعثة التى وجهها الحسن الاول الى فـرنسـا ، ولهدامحنـاه .

9 — (بيروك) فى كولمين وكان متحكما ومحتكرا للتجارة مع تمبكتـو — ورؤساء زاوية تزروالت الذين جنحوا فى عهد الحسن الاول الى الاستقلال الذاتى ، ولكنه تمكن من كسر نفوذهم فى جولتين : 1882 — 1886 بينما كان نفوذ الاقطاع المحلى يقتسم المغرب الى ثلاثة مناطق رئيسية: المتوكة فى الغرب ، الجندافيين فى الوسط ، والكلاوه فى الجنوب .

10 — قارن هذا مع A. G. Frank (مصدر مذكور) ص 20 يقول :
« ان اختيار التبادل الحر كان احدى السياسات الرئيسية للنمو الرث الذى حاولته البورجوازية الرثة لمصالحها الاقتصادية الخاصة ، ان هذه السياسة ضاعفت من التبعية ازاء الخارج » .

11 ــ لمزيد من التفصيل انظر : مؤتمر الجزيرة والخطوط الكبرى على طريق الحماية / احمد الضمضومى ص 71 وما بعدها اقلام (مجلة) عدد 9 / 10 يوليــوز 1975 .

12 ــ فى 1880 (3 يوليوز)تم امضاء اتفاقية مدريد بين المغرب و (13) بلدا اوربيا . وقد نصت المادة (11) على « أن قانون الملكية مضمون لجميع الاجانب فى المغرب » راجـــع :

— CHRONOLOGIE DE LA POLITIQUE AGRAIRE ET AGRICOLE AU MAROC - (1850 - 1973) - in LA QUESTION AGRAIRE AU MAROC - op. cit. pp. 9-42.

13 ــ « ان الغزو الذى يقدم نفسه تحت الثياب انخلقية للمهمة التجديدية ولمكافحة العبودية ، يضع فى الحقيقة حينما انقض مكبحا لمحاولات التجديد ، ويحرص على منع ظهور الصناعات المزاحمة ، ويفـرض التخلف بصورة عامة » راجع : ما هى التنمية . Yves Benot (مصدر مذكور) ص 36 وما بعدهـــا .

14 ــ انظر : مستقبل شبيبتنا (مصدر مذكور) ص 26 وما بعدها . وانظر ايضـــا :

— BILAN DE L'ECONOMIE DEPUIS L'INDEPENDENCE - A Bélal et A. Agourram. BESM. N° 116 - p. 6 et suivantes.

15) LA CRISE DES INTELLECTUELS ARABES - Ed. Maspéro - 1974 - p. 51 et suivantes.

16) Voir : LE ROLE POLITIQUE ET IDEOLOGIQUE DE LA PETITE BOURGEOSIE DANS LE MONDE ARABE - M. Kamel. in RENNAISSANCE ou M. A. op. cit. p. 147.

وقد نشـر المقال باللغة العربية فى مجلة (الثورى) ـ نشـرة داخلية للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين .

(*) ــ لاحظ ان العروى يقبل كثيرا بالتفسير الليبرالى ، ولذلك فهو لايتحرج من الاطلاق فى هذه الناحيـــة .

17 ــ للتفصيل فى موضوع التمية الاقتصادية والسياسية انظر على سبيـــل المثال :

— CH. Dettelmein - PLANIFICATION ET CROISSANCE ACCELEREE - op. cit. p. 32 et suivantes.

— P. Jalée - LE PILLAGE DU TIERS MONDE - p. coll. Maspéro 1976 - p. 150.

18 ــ ما هى التنمية (مصدر مذكور) ص 61 .

(*) — لاحظ عبد الله العروى أن مفهوم (السيبة) لا يعنى وجود سلطة محلية فى منطقة معينة ، باعتبار أن (بلاد المخزن) هى نفسها كانت توجد فيها مراكز قوى معينة باشراف القواد ور ساء الزوايا ، وقد استخلص أن (السيبة) لا تعنى فى الحقيقة سوى مقولة قانونية حلقتها المخزن نفسه . ومن المفيد أن نلاحظ بدورنا أن السياق العام لراى العروى هذا هو الدفاع من مفهوم السلطة المركزية بما يعنى تحكمها فى مجموع التراب الوطنى ولو فى فترات ضعفها . وهو بهذا المفهوم يخدم هدفا سياسيا محددا يدور عليه موضوع كتابه . أنظر :

19 — ما هى التنمية (مصدر . م.) ص 42 .

— L'ALGERIE ET LE SAHARA MAROCAIN - p. 59 - Ed. SERAR Casablanca.

20 — تاريخ الحركة الوطنية (مصدر مذكور) ص 12 .

21 — لقد أحس (غلاب) وهو يومئذ بصدد كتابة تاريخ الحركة الوطنية بحرج ضمنى فى تحديد بداية معقولة لها . لكنه اكتفى فى النهاية بأن استبعد الحديث عن فترة المقاومة (الريفية بالخصوص) وانخرط مباشرة فى شرح منطلقات الفكر الوطنى بعد أن أصبح حركة واقعية مستخلص وجود فترتين لا يمكن الحديث عنهما معا (السلاح — والسياسة) وقد احسن غلاب بهذا الصنيع ، ونحن نجد فيه ، كما وجب التنبيه نصا يفيد فى استخلاص المدلولات الرئيسية لتحول البورجوازية المتوسطة الى ميدان العمل السياسى — الاصلاحى ، وهو موضوع شرحناه فى الصفحات التالية .

22 — 7.500 اقطاعى كانوا يملكون فى نهاية عهد الحماية : 1.800.000 هـ. أى حوالى 1/4 الاراضي المزروعة ، بالاضافة الى امتداد نشاطهم الى الميدان التجارى بحكم لروابط التى كانت لهم مع الشركات الرأسمالية الاجنبية . وكان الممثلون التقليديون لهذا النوع من الاقطاع (السياسى الفلاحى) : باشا مراكش التهامى الكلاوى 15.000 هـ. القائد العيادى فى الرحامنة 30.000 هـ. والقائد أمهروق فى زيان 56.000 هـ. ... وفى مقابل هذا بلغ عدد الذين لا يملكون (عمال زراعيون ، خماسون) حوالى 3000.000 فرد فى نفس الفترة . وقد بقى وسط هذه الدائرة الملاكون الصغار : 3 مليون هـ. أى حوالى 40 ٪ من الاراضى المزروعة وكانوا يشكلون فى 1952 1/3 السكان القرويين H. M.

23 — انظــر ايضــا

24 — ما هى التنمية . (مصدر مذكور) ص 62 . (مع انه يمكن التحفظ جزئيا تجاه هذا الراى ، وخصوصا فيما يتعلق بالتطورات التى عرفتهــا

البلاد قبل 1947 وبعدها على حركة البورجوازية المغربية)، وجدير بالذكر ان التعبير الثقافي عن هذا الموقع تجسد في الشعر بصورة خاصة على يد : بوجندار والشنقيطي .. وغيرهما ، وقد اشاد هذا التعبير بدور ليوطي في المغرب وقدم له ما يكفي من العون الدعائي بواسطة الجريدة الرسمية في المرحلة : السعادة ، التي تحولت الى (الانباء) بعد الاستقلال : ومن المعلوم انه سبق لعلال الفاسي ان نشر في هذه الجريدة في مرحلة مبكرة من بداية صدورها (1934) ولكنه انقطع عنها . ولهذا معناه أيضا . راجع بهذا الصدد : الشعر والاستعمار — عبد القادر الشاوي . الاختيار (جريدة)، أعداد 7، 8، 9، 1973 .

25 — لمزيد من التوسع في هذه النقطة أنظر : مشروع مناقشة لاطروحات العروي / توفيق السعيدي ، الثقافة الجديدة س1ع4 خريف 1975 ص 3 وما بعدها ، مع تحفظ شخصي يقوم مقام اعتراض على بعض الاطلاقات التحريضية التي ضمنها (توفيق) في مناقشة عامة وناقصة.

26) A. G. Frank - Lumpen bourgeoisie - op. cit. p. 21.

27 — أنظر الحركات الاستقلالية (مصدر . م.) ص 148 . ويحسن التنبيه الى ان عمر بن عبد الجليل يشغل حاليا رئيس البنك الشعبي بالمغرب

28 — المصدر المذكور ص 441 .

29 — في الحين الذي طرح (علال) ضرورة الاستقلال ، ارتضى (الوزاني) ان يلوح بالديمقراطية . هذه مفارقة ام تناقض ؟!

30 — جوابا على « الاصلاحات » الاستعمارية الشكلية التي تزعمها الجنرال (بيو) في المغرب ، اصبحت المطالبة بالاستقلال ضرورة لا غنى لحركة ديمقراطية واسعة ، كآخر مرحلة لاستنفاذ الرهانات المعلقة . وهكذا يظهر لنا مرة اخرى ايضا ، ما كان ذا معنى في السياسة الاصلاحية .

31 — « ان التبعية الاقتصادية الجديدة تخلق بنية طبقية وسياسية جديدة للنمو الرث ، لا يتضمن فقط عدم قدرة البورجوازية بكاملها اعطاء سياسية نمو بسبب من اسباب مصالحها التي تمنعها من ذلك ، ولكن أيضا لان سياسة البورجوازية الرثة في النمو الذي تبحث منه ، تعد بخطورة التناقضات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على الدوام ». أنظر :
Lumpen bourgeoisie et Lumpen développement - op. cit. p. 28.

32 — جرى الحديث في اواخر الاربعينات ، أنظر : الحركات .(مصدر مذكور) ص 227 وما بعدها .

33 — ورد فى وثيقة لجماعة (لسان المغرب) القول : « فلا مناص ولا محيد لجلالته أن يمنح أمته نعمة الدستور ومجلس النواب واعطاءها حرية العمل والفكر لتقوم باصلاح بلادها اقتداء بدول الدنيا الحاضرة المسلمة والمسيحية ».

34 — للتوسع راجع : تاريخ المغرب (المصدر . م.) ص 96 وما بعدها والحركات (مصدر مذكور) وانظر ايضا
HISTOIRE DU MAROC - op. cit. p. 322 et suivantes.

35 — للتفصيل فى هذه النقطة نقترح : الفكر العربى فى عصر النهضة (مصدر مذكور) ص 411 وما بعدها

36 — انظر نص وثيقة جماعة (لسان المغرب) فى الملحق الخاص بهذا الفصل الاخير .

37 — لقد ارتبط فشل تجربة (لسان المغرب) ب : الف : كونها تجربة محدودة قاعدتها بعض المثقفين المحليين (طنجة وغيرها) من ذوى الاطلاع المباشر او غير المباشر على مصادر الفكر الاوربى الديمقراطى . باء . كونها تجربة معزولة عن السياق الاجتماعى ، فلم ترتبط باية حركة جماهيرية ولم يكن ذلك همها . جيم : الاستعمار المباشر ... لكنها كانت مع ذلك احدى المطامح الاساسية التى بقيت مستندا لكل حركة ديمقراطية تسعى الى وضع الاسس الدستورية ـ الحقوقية لعلاقة الحاكم بالمحكوم . لقد كانت التجربة بهذا المعنى ، وضمن حدودها ، تجربة ارساء الديمقراطية على أسس ليبرالية تقبل التعليم السلفى أو لعلها تنطلق منه ، ولهذا لم يرفضها علال الفاسي ، بل دعمها فى مستوى آخر على نحو اكثر وضوحا .

38 — من المفارقات التى يحسن أن نخصها بملاحظة عابرة ان النفخ فى الاعتبار الدينى كعامل من عوامل الوحدة ، اكتسب فى الآونة الاخيرة طابعا حادا فى منظومة الفكر السلفى . الا أن الذى يبعث على السخرية ، كون هذا النفخ يأتى فى غير ظروفه الموضوعية . ففى السابق كان مبررا بظروف الاستعمار وسياسته الرجعية ، أما الان فهو تحت ضغط تنامى المد الجماهيرى وحركة تحرر الشعوب بصورة عامة لتجاوز التخلف والتبعية ، وبناء مجتمع تقدمى ... ترى : أيكون هذا النفخ الان دالا على أزمة الفكر السلفى أم على ديماغوجية المثقفين السلفيين أنفسهم ؟ فى اعتبارنا ، لابد من دمج هذا فى ذاك ، لاستخلاص أهمية النضال ضد استعمال الدين لتبرير الاستغلال الاقتصادى والقمع الايديولوجى والسياسى . للوقوف على آخر تقليعة لهذا الرأى أنظر : الوحدة المذهبية ... (عباس الجرارى) مصدر مذكور .

39 ــ خلقت مطالب الحركة الوطنية الاولى 1930 احتجاجات واسعة فى العالم الاسلامى واوربا (فرنسا بالخصوص) : احتجاج جمعية الشبان المسلمين ــ جمعيه الهدايه الاسلاميه ــ ظهور لجنه خاصه بالمحافظة على الاسلام بين البربر استطاعت أن تبث فروعها فى الهند وجاوة. كما قام الطلبة الموجودون بفرنسا بمهرجانات دعائية وأداعوا كثيرا من النشرات ، واصدار رسالة (عاصفة مراكش) و (اخطاء السياسة البربرية).. أنظر : الحركات .. (م.م) ص 148 .

40 ــ تطبيق معاهدة الحماية والغاء كل مظاهر الحكم المباشر ــ توحيد النظامين الادارى والقضائى لجميع البلاد ــ تعديم المغربية فى جميع فروع الادارة ــ الفصل بين السلطات التى يقوم بها القواد والبشوات ــ احداث بلديات ومجالس اقليمية وغرف تجاريه ومجلس وطنى ... الخ . مع اشارات الى باقى الاوضاع المختلفة : الاوقاف الاسلاميه ــ الصحة العامة ــ الاصلاحات الاقتصادية والمالية ــ الفلاحة ــ النظام العقارى .

41 ــ الحركات الاستقلاليه (مصدر مذكور) ص 170 .

42 ــ الحريات الديمقراطية ــ التعليم (توحيد البرامج والزيادة فى عدد المدارس ..) العدل ــ الفلاحة (تاسيس ملك عائلى لا يقبل التفويت من طريق توزيع املاك الجماعات وتوسيع القرض الفلاحى) تجديد الصناعه المغربية وحمايتها من المزاحمة ــ مساعدة العاطلين المغاربه ــ الصحة العامة (الزيادة فى عدد المستشفيات ..) .

43 ــ كانت الفئات التى تكتلت فى حزب الاستقلال (فيما بعد) على حد تعبير علال الفاسى : 1 ــ الحزب الوطنى الذى كان يضم الاغلبية الساحقة من الفلاحين والصناع والتجار وغالبية « النخبة المثقفه » 2 ــ رؤساء وأعضاء المجلس الادارية لجميع قدماء تلاميذ مدن الرباط وفاس وغيرهما 3 ــ بعض الشخصيات البارزة فى الحركة القومية . 4 ــ عدد كبير من المفتين والقضاة الشرعيين والمدنيين وكبار الموظفين واساتذة الجامعة القروية والمعاهد الكبرى .. وبذلك كما يؤكد علال الفاسى نفسه « تكتلت الامة كلها فى هذا الحزب ». انظر : الحركات الاستقلالية (م. م) ص 249 .

44 ــ راجع فى آخر الفصل نص وثيقة نشرتها صحيفة (الاطلس) حول حل (كتلة العمل الوطنى) .

45 ــ من نتائج المطالبة بالاستقلال سنة 1944 : قتل عشرات المواطنين فى المظاهرات وسجن اكثر من خمسة آلاف والحكم بالاعدام على العديد من الشباب والنفى والاشغال الشاقة ــ بقيت المدارس الثانوية مقفلة

طيلة عام كامل والمدارس الابتدائية لمدة ثلاثة أشهر والقرويين ثلاثة اعوام — أعتقال العديد من المثقفين المغاربة — بالاضافة الى عزل كثير من الموظفين ووزيرين مغربيين . أنظر : الحركات الاستقلالية (مصدر م.) ص 266 . وأيضا : (ت . م) ص 124 وما بعدها .

46 — الحركات الاستقلالية (مصدر م. ، ص 440 .

47 — المرجع المذكور ، الصفحة بالذات .

48 — عربيا ابتداء من 1947 : توطيد العلاقة مع مصر الفاروقية — تأسيس لجنة تحرير المغرب العربي واصدار ميثاقها وقد وقع عليه : الحزب الحر الدستورى التونسى القديم والجديد ، وحزب الشعب الجزائرى وحزب الوحدة المغربية وحزب الاصلاح الوطني وحزب الشورى والاستقلال ، ويحسن الرجوع الى هذا الميثاق فى الحركات الاستقلالية (ص 412). ومغربيا : مع حزب الشورى . وقد قام محمد بن العربي العلوى (المعروف بشيخ الاسلام) بالتوسط وصدر الميثاق فى هذه الفترة نفسها . أنظر : الحركات .. ص 413 .

49 — نصت احدى فقرات الميثاق على « عدم الدخول مع الشيوعيين فى جبهة ولا يجوز الاتصال بهم الا على يد اللجنة التنفيذية ». وتشير الى أن الحزب الشيوعى المغربى كان بأمانة على يعتة منذ 1945 .

50 — خصوصا أثناء وجوده فى القاهرة ، بالاضافة الى الجولة التى قام بها علال فى أوربا وأمريكا (الشمالية والجنوبية) بصحبة (انجاى) للدعاية للقضية المغربية . وقد رافق هذا الانفتاح عدة عوامل منها : 1 — التصريح الذى أدلى به محمد الخامس فى طنجة (= تأكيد صفه المغرب العربية الخالصة — ضرورة تحقيق وحدة البلاد — وحدة المثل العليا الثقافية والدينية — ضرورة تحقيق سائر الامانى الوطنية — ضرورة تأسيس نظام ديمقراطى) 2 — مجزرة الدار البيضاء (حى بنمسيك فى 7 ابريل 1947) . 3 — مؤتمر المغرب العربى بالقاهرة (15 فبراير 1947) (تنبيه : انعقد المؤتمر بالمركز العام لجمعية الشبان المسلمين — ولهذا معناه). وقد خرج المؤتمر بالقرارات التالية : أ — بطلان معاهدة الحماية (تونس والمغرب) وعدم الاعتراف بأى حق لفرنسا فى الجزائر. ب — مطالبة الحكومات المغربية والهيئات الوطنية باعلان استقلال البلاد . ج — المطالبة بجلاء القوة الاجنبية عن بلاد المغرب كلها. د — رفض الانضمام للاتحاد المغربى (مشروع استعمارى) فى أى شكل من أشكاله. هـ — تعزيز الكفاح فى الداخل والخارج . أنظر الحركات : ص 372 ...

51 — « ان هدف الاستعمار كان دائما هو ابقاء البادية المغربية فى حالة ركود اقتصادي فى اطار متخلف من عمليات الاستهلاك الذاتي حتى يحافظ و

بلادنا على عمليات تدبيره الخاصة . ومن اجل هذا الهدف عمد الاستعمار في البادية الى خلق فئة اجتماعية جديدة من الملاكين الكبار الذين تمركزوا كما تمركز المعمرون حول الاراضي الجماعية أو المملوكة او حول الاراضي التي انتزعت من الفلاحين أو المشتراة منهم بالقوة » راجع

— LA QUESTION PAYSANE : Union Marocaine du Travail 1961 cahier d'information syndicale de l'UMT. - extrait de la brochure N° 1 daté (vers 1961) publié sans le titre : QUI POSSEDE LA TERRE AU MAROC Voir : LA QUESTION AGRAIRE - op. cit. p. 116 :

52) Lumpen bourgeoisie en p. 20.

53 — انشأ المكتب الشريف للفوسفاط سنه 1920 وبدأ الاستغلال سنة 1921 في اولاد عبدون (خريبكة) 33.000 طن وفي 1954 تجاوز الانتاج 5 مليون طن . وكان المكتب أكبر مؤسسة صناعية في المغرب (عدد العمال 11.000) وكان دوره في تمويل المشاريع الاستعمارية كبيرا : في سنه 1953 حوالي 9 مليار — وفي مد خطوط السكك واستصلاح الموانىء (الدار البيضاء و آسفي) بالاضافة الى أنه ساهم في خلق مدينتين : اليوسفية وخريبكه . وكانت معظم المعادن الاخرى في يد الشركات الخاصة الفحم (جرادة) في يد الشركة البلجيكية Ougrée - Marihage وثلاثة شركات اخرى . وقد بلغ الانتاج سنة 1953 : 565 الف طن — بدأت الابحاث البترولية سنة 1928 وتكونت الشركة الشريفة للبترول بمساهمة المغرب وفرنسا والشركة الفرنسية البلجيكية للمغرب وبذلك باريز هولاندا ، وقد ارتفع الانتاج بعد 1948 ولكنه ظل ضعيفا : 118000 طن فقط سنة 1954 وقد جرت تصفية هذا البترول في (سيدي قاسم) ولم يمثل سوى 15 ٪ من استهلاك البلاد ، كان الزنك والرصاص يستغل من طرف (3) شركات : في ابي بكر (شركة معادن زليجة : وانر — بناروبا — موركان) وفي احولي ميبلادن (شركة مراقبة بواسطة بناروبا مع بنك الاتحاد الباريزي وبنك باريزز هولاندا) وفي تويسيت (الشركة النمساوية للمعادن ..) كما كان المانغنيز مستغلا من طرف (3) شركات اخرى (بنك الاتحاد الباريزي — باريز هولاندا — بنك والتر وشركة المانغنيز التي تضم التروست الفرنسي) وكان يصدر نحو فرنسا وأمريكا . وقد كانت الارباح التي حققتها هذه الشركات مرتفعة جدا ، بحيث وصلت أرباح شركة معادن زليجة في سنة 1954 : 1258 مليون فرنك . بينما كانت أجور العمال المغاربة لاتتجاوز 8330 فرنك في مقابل 50.000 للاوربيين . **ومعلوم ان تطور هذا الاستغلال المعدني لم تستفد منه البلاد صناعيا الا في مجال المؤسسات الصناعية جزئيا ، بحيث تجاوز عدد معامل المصبرات (والسمك وغيره) 26 في سنة 1938 و195 في سنة 1950 .**

و 10/9 من هذه المصانع كانت في ملكية الصناعة الفرنسية والباقي بيد الاجانب من غير الفرنسيين او المغاربة وكذا الامر بالنسبة للصناعة النسيجية .

أما في المجال التجاري ، فقد كان على نطاق واسسع بيد المؤسسات الاستعمارية الاجنبية (= تبعية الاقتصاد المغربي) وقد عاش المغرب على طول المرحلة الاستعماريه خاضعا لنظام الباب المفتوح الذي ارتبط بالمعاهدات الدولية ، نهايه القرن 18 واوائل القرن 20 = 1906 مثلا) وكان من نتائج هذه الاخيرة (مؤتمر الجزيرة) ان حدد القانون الجمركي بـ 10 ٪ من قيمة الانتاج مهما كانت طبيعته وبلده الاصلي ، وفقط 2,5 ٪ مخصصه لصندوق العمومي . ويحسن أن نتذكر أن تبعية التجارة الخارجية كاد تتقبل كل شيء نتيجة للنظام الجمركي ، مع ما رافقه من احتماع العملة المغربيه للفرنسية منذ سنة 1920 بحيث استفادت منه الامبريالية الفرنسية لصالح امتيازاتها الخاصة . وقد تطورت ضمن هذا السياق (منذ 1920 الى 1955) المبادلات المغربية في اطار اقتصاد مفتوح على العالم الخارجي (خصوصا فرنسا) وقد تميزت هذه المبادلات بارتفاع الواردات والصادرات معا . وكان مجموع هذا الارتفاع سريعا (= الصادرات)، ولذلك علاقة بالاهمية المتعاظمة للاستغلال وتصدير الانتاج المعدني . وقد تجلت التبعية التجارية ايضا في هذه التجارة نفسها : المغرب كان يصدر المنتوجات الفلاحية والمعدنية الخاصة ، وكان يستورد المنتوجات المصنعة ولذلك عرف الميزان التجاري في المغرب في هذه الفترة عجزا واضحا وثابتا (مثلث التجارة الخارجية تحت الحماية في منطقة الشمال نفس الخصائص). نتج عن هذه الوضعية عموما : أزمة الاقتصاد التقليدي ، ولذلك مرغم ظروف الهجرة كانت الفلاحة هي شغل جزء كبير من الجماهير المغربية (اكثر من 6 مليون) اى بمعدل 4/5 من مجموع السكان سنة 1947 ، مع سيادة الاساليب الانتاجية العتيقة في هذا الميدان نفسه . ولقد كانت الفلاحة الجديدة في جزء كبير منها في يد المعمرين : 92 ٪ من الاراضي المزروعة مخصصة للزروع وذلك في اطار خطة اقتصاد المعاش Subsistarce . ويمكن أن نسرد من بين العوامل التي أخلت بالفلاحة التقليدية : 1 — وجود الاراضي الجيدة بيد المعمرين. ب — انتقال اقتصاد المعاش الى اقتصاد نقدي . جـ — خلق الاحتياجات الجديدة لادخال المنتوجات المصنوعة الى الوسط الفلاحي . د — انتقال الاحتياطات النقدية . هـ — كثرة الضرائب .. الخ . وبالاضافة الى الاخلال الذ يمارسته هذه العوامل بقيت اساليب الانتاج التقليدى سائدة . اما في المدن فقد وجد حوالي 1950 : 200 الف صانع تقليدى : 3/4 في النسيج وهو الاكثر رواجا. كما تضاعف عدد التجار الصغار في اطار تضخم حجم المبادلات . أما على المستوى الاجتماعي فقد تطور السكان نتيجة المركزة الحضرية

وتجديد أساليب الحياة والبنيات الاجتماعية (فى البادية والمدينة) على وجه العموم . وقد تميز الوضع بوجود نسبة مهمة من المعمرين الاوربيين والاجانب خصوصا بعد فشل ثورة عبد الكريم . والجزء الاكبر من هؤلاء يقطن فى المدن 80٪ . بقى التعليم خاضعا للتوزيع الاستعمارى : تعليم أصلى — عصرى — اسرائيلى — اسلامى — خاص .. مع سيادة مناهج مختلفة (أنظر : محمد عابد الجابرى : أضواء حول مشاكل التعليم — دار النشر المغربية) .

كل هذه العوامل احدثت تحولات ملموسة ابرزها (ولادة بروليتاريا مغربية) متمركزة فى الدار البيضاء : 400.000 عامل (دائم ومؤقت..) وكانت الاجور متدنية باستمرار حتى صدر فى 1936 ظهير يحدد الاجر الادنى للمياوم ولكنه لم يحدد ساعات العمل. وفى 1936 أيضا تم الاعتراف بحق التنظيم النقابى للاوربيين . ولم تأت سنة 1943 حتى فتحت C.G.T. أبوابها للعمال المغاربة . وفى 1946 تحول الفرع المغربى فى الى U.G.S.E.M. بكتابين عامين : فرنسى / مغربى وقد تمحور النضال العمالى ما بين 1945 و 1948 حول العمل العادل — الاجر العادل + الحق النقابى للجميع — الزيادة فى الاجور . وقد تميزت سنة 1948 بسلسلة من الاضرابات فى السكك والمناجم . كما تميزت هذه السنة بدخول أفواج كثيرة من العمال الى U.G.S.E.M. بناء على نداء من الحركة الوطنية . وبعد 1950 اصبحت (U.G.S.E.M) مسيرة من طرف المغاربة خصوصا بعد مؤتمرها الذى انعقد (11 و 12 نونبر) من نفس السنة وبذلك أصبحت مرتبطة على نحو فعال بالحركة الوطنية وقضاياها السياسية : الغاء الحماية — الحريات الديمقراطية ... انظر لمزيد من التفصيل .

— HISTOIRE DU MAROC - op. cit.
— L'ECONOMIE DU MAGHREB - op. cit. - p. 47 et suivantes - et aussi : LE MAGHREBE MODERNE Sannir Annjr - Ed. Minuit.

وايضا : تاريخ المغرب (مصدر . م.) الجزء الثانى .

(*) — أبرق اليوتنان (الوجران) الى الجنرال (ديغول) يخبره : « تفاوضت مع الاستاذ علال الفاسى ، وهو يقبل التعاون مع فرنسا الحرة على تحرير شمال افريقيا من ضغوط المحور بشرط الاعتراف الناجز باستقلال المغرب والسيد علال الفاسى صريح ويتكلم فى استقامة ووضوح ويتمتع بزيادة على نفوذه فى المغرب بثقة كثير من زعماء العرب » (هذه الاضافة نوردها كتكملة لنص عبد الكريم غلاب : ت. ش)

54 — انظر تاريخ الحركة الوطنية (مصدر .م) ص 211 وايضا : ملامح من شخصية علال (م . م) ص 171 وما بعدهـا .

55 — الحركات الاستقلالية (مصدر. م. س) ص 402 .

56 — لقد لاحظ (بليخانوف) « أن التنظيم الاجتماعي هو الذي يحدد ، في كل حين الدور وبالتالي الاهمية الاجتماعية التي يمكن أن تسود لبعض الشخصيات الموهوبة أو عديمة الموهبة » أنظر : دور الفرد في التاريخ (مصدر.م) ص 195 .

57 — يجد القارئ هذا النص في الوثيقة رقم (3) الملحقة بهذا الفصل .

58) Cité par : A.G. Frank - Voir : Lumper bourgeoisie - op. cit. p. 52 et suivantes.

59) F. Engels : Ludwig Feuerbach et la fin de la philosophie classique allemande - p. 73 - Ed. Sociales - Paris 1970.

60 — تجدر الاشارة الى أن النموذج الدولي للتقدم العام الذي ركزت عليه جماعة (لسان المغرب) وهي تقترح الاصلاحات الدستورية التي يجب العمل على انجازها في البلاد هو اليابان « تلك الشمس المشرقة في آفاق آسيا » (انظر : الوثيقة في آخر الفصل : النص الاول)

61 — وقد ألح عبد الكريم غلاب على استخلاص من هذا النوع ، وهو لذلك يكفينا حجة في تقرير الرأي أنظر : ملامح من شخصية علال (مصدر.م) ص 131 وص 178 أيضا (نفس المصدر) .

62 — ان جزمنا في الرأي (ولم يكن بكل تأكيد) يعود الى أن علال الفاسي سبق له أن نشر بعض فصول الكتاب بشكل رسمي في الفترة المعنية بالبحث ، ولذلك فلا مجال لتفسير آخر في رأينـــا .

63 — « ان الاستراتيجية الامبريالية تتضمن جوابا ملحما على مجموع النضالات المضادة لها ، فهي تبحث عن اضعاف أو على الاقل تحييد معسكر البلدان الاشتراكية ، والى كبح أو على الاقل مراقبة النضالات التحررية للشعوب في البلدان المسيطر عليها ، والى تحريف أو على الاقل طمس الصراعات الطبقية (...) في المراكز الرأسمالية ، واخيرا الى هدم الترابط بين هذه المكونات الثلاث وبين معسكر القوى الاشتراكية.. » انظـــر :

— DIVISION INTERNATIONALE DU TRAVAILLE ET ALLIANCES DE CLASSE - G. Massiah. In LA CRISE DE L'IMPERIALISME - Ouvrage collectif - Ed. de Minuit 1975 - pp. 97 et suivantes.

64 — النقد الذاتي . (مصدر. مذكور) ص 433 وما بعدهـــا .

Yves Lacoste

65) LE PILLAGE DU TIERS MONDE - p. coll. maspéro 1976 - p. 184

66 — ابن خلدون / ت : م.سليمان — دار ابن خلدون 1974 — بيروت ص822

67 — النقد الذاتي (مصدر. مذكور) ص 440 .

عباس الصوري

ارتسامات اولية حول اشكالية الوضع اللغوي بالمغرب

ان التصور العام اما يطرحه الوضع اللغوى بالمغرب من مشاكل يستدعى وضع عدة اسئلة ، لكن هذه الاسئلة يمكن أن تجر الى أخرى ، وهى فى عمومها لا تخرج عن هذه الملاحظة وهى ان اللغة العربية وان كانت هى اللغة الرسمية بالبلاد لا تدرس فى معاهدنا لمكانتها الوظيفية فى المجتمع ، ذلك أن المواطنين فى واقع الامر لا يستخدمونها ، وانما يستعملون العامية فى قضاء شؤون حياتهم العامة ، وابن خلدون منذ القرن الثامن الهجرى وجود هذه الوضعية اللغوية الخاصة ، ونبه عليها فى مقدمته(1) « اعلم أن عرف التخاطب فى الامصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ... بل هى لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر ... وهى مع ذلــك تختلف باختــلاف الامصــار فى اصطلاحاتهم فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشىء لغة أهــل المغرب . . . » فهو يلاحظ قيام لغة اخرى تختلف عن الفصحى فما السبب ؟ يقول (2) « اما افريقيا والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة ... بوفور عمرانهم بهم ، فغلبت العجمة فيهــا

على اللسان العربى ... وصارت لغة اخرى ممتزجة والعجمة فيها اغلب ... فهى عن اللسان الاول أبعد ...)) .

ان ابن خلدون فيما يبدو ، كان أكثر تحررا من لغويينا المحافظين فى العهد القائم حيث كان يؤمن أن التطور وما يترتب عليه من تغير فى اللغات أمر طبيعى ، وضرب لذلك مثلا بانفصال العربية عن الحميرية القديمة (3))) ولقد كان اللسان المضرى مع اللسان الحميرى بهذه المثابة وتغير عند كثير من موضوعات اللسان الحميرى ، وتصاريف كلماته ... خلافا لمن يحمله مقصور على أنها لغة واحدة)) .

فاللغة العربية عندما حلت بالمغرب لم تنتشر هكذا دفعة واحدة فعلى مدى أربعة عشر قرنا وعبر الهجرات القبلية للعرب الى المغرب أخذت العربية تأخذ مكانتها بين المواطنين تدريجيا بل سنجدها تتأثر بدورها باللغات المحلية ، وعن طريق التفاعل بها نشأت لهجة أخرى هى العامية واللهجات تنشأ عادة نتيجة الازدواجية المتولدة عن التقاء لغتين مختلفتين ، وهى هنا العربية والبربرية ، ويرى أحد الباحثين (4) أن أية لهجة فى حقيقتها لغة وان كانت هذه اللغة فاشلة سياسيا وقد لاحظ الاستاذ العروى فى كتابه ((أصول الوطنية المغربية)) فى القسم الذى خصصه للسان المغربى (5) فى القرن التاسع عشر أن المغاربة جميعا يتخاطبون بالعامية او على الاقل هم جميعا يفهمونها ، وهذه العامية ترتقى او تتدهور حسب المناطق الحضرية أو البدوية ومن الصعوبة تحديد انتماء القبائل المنتشرة فى المغرب انطلاقا من لغاتها ، فالهجرات المتوالية التى يتسم بها تاريخ المغرب جعلت القبائل العربية والبربرية تختلط فيما بينها ويؤثر بعضها فى بعض ، فتداخلت لهجاتها واختلطت عاداتها .

فنحن اذا امعنا النظر قليلا فى الرقعة الجغرافية اللغوية بالمغرب يمكن ان نخرج بعدة ملاحظـــات :

ــ أولا : انتشار البادية واستقطابها لغلب المناطـــق بالمغرب ، فالى حدود 1969 كانت الغلبة لها بنسبة 63ر5 ٪ وهذا كما يراه (دانييل نوان) فى كتابه ((سكان البـــاديــة بالمغرب)) (6) ((مظهر من مظاهر التخلف فى المغرب الذى يعتمد على البادية فى توزيع سكانه)) ولقد بلغ سكان البادية فى هـــذا التاريخ (1969) 10.200.000 (ومعنى هذا أن التطور ــ الذى يعتمد على الحواضر ــ ما يزال بعيد المنال) (فى امريكا نسبة البادية 12 ٪ ، وفى اوربا الغربية 20 ٪ (7)، ومع ذلك فان الانتاج الفلاحى لم يكن مغريا ، فالتكاثر مظهر يكتنف عن هزال هذا الانتاج .

ــ ثانيا : يجب استثناء المدن الكبرى من هذا التوزيـــع السكانى ، لانها تكتسى طابعا كوسموبوليتيا يشتمل على كـــل العينات البشرية ، ومع ذلك فهناك بعض المدن الجنوبية التى يمكن التفاهم فيها باللغة البربرية ، مثل : اكادير ، الصويرة ، تـــارودانـــت . . .

ــ ثالثا : هناك عامل غزو التعليم لبعض المناطق الجبلية التى كانت فى القديم تعد حصنا منيعا للغة الامازيغية مما جعل العربية تنتشر بها ، وتفهم من طرف سكانها .

ــ رابعا : البربرية لا تقتصر على سكان الجبال ، فهى تنتشر أيضا فى بعض السهول ، لكن بنسبة ضعيفـــة كسهـــل الشياظمة (ناحية الصويرة) وسهل سوس (ناحية اكادير) حيث تتساكن القبائل المستعربة والبربرية ، ومن الصعوبـــة التمييز بينهـــا .

ــ خامسا : اننا هنا لا نهتم باسباب هذا التوزيع الجغرافى ولا دواعيه العرقية بقدر ما تهمنا الظاهرة فى وضعها الحالى ، ونترك بقية الاسئلة للمؤرخ وعالم الاجتماع .

ــ سادسا : انه من الصعوبة القطع بوجود جماعات لا تستعمل فى خطابها غير البربرية دون غيرها فى كثير من المناطق الجبلية ، فتقسيم السكان اذن الى بربر يسكنون الجبال ، وعرب يسكنون السهول هو تقسيم تقريبى وسطحى نوعا ما ، وكذلك هو رهين بالفترة الحالية التى نجتازها .

ــ سابعا : ان اللهجات البربرية من الشمال الى الجنوب متفاوتة ، وهذه الملاحظة تبدو مهمة فى نوع التاثير الذى تمارسه كل لهجة على المنطقة المتاخمة لها صوتيا وأدائيا وحتى نحويا ومعجميا ، فالعامية الجنوبية مثلا (فى الصويرة ، ومراكش ، وأكادير) مكيفة ببربرية (تشلحيت) المنتشرة فى الاطلسين الكبير والصغير ، وفى الشمال نجد نفس الظاهرة مع اللهجة الريفية . . . .

ــ ثامنا : تشكل نسبة السكان فى الجبال من مجموع سكان المغرب (بنسبة 5ر21 فى الكلم2) فاذا اضفنا المرتفعات المجاورة وكذلك السهول سنجد ان نسبة الذين يستخدمون البربرية فى خطابهم او يستطيعون استعمالها تكاد تتجاوز الثلث من مجموع سكان المغرب (8) .

ــ تاسعا : هناك اخيرا ظاهرة عدم استقرار السكان فى مناطقهم ، فهم دائما فى حركة دائبة للتقلبات السياسية والاجتماعية والمناخية ، بل وتبعا لعوارض الطبيعة من كوارث وضربات الجفاف والوباء الخ ... مما جعل متعذرا الحكم ببقاء قبيلة فى منطقة معينة وصفائها وعدم اختلاطها بغيرها .

بالاضافة الى هذا الواقع القديم للحياة اللغوية بالمغرب طرأ عامل جديد فى العصر الحديث يتجلى فى دخول لغة الاستعمار الفرنسى والاسبانى منذ بداية القرن احاى عن طريق التعليم وأجهزة الاعلام ليضيف بعدا آخر لهذه الوضعية اللغوية المعقدة والتى يكشف عنها واقع المغرب الحالــى .

اذن يمكننا بعد هذا ان نرسم تشكيلا للوضع اللغوى فى بلادنا كما يلى :

1) ـــ العربية الفصحى

تعتبر اللغة العربية الفصحى هى اللغة الرسمية فى البلاد أى لغة الايديووجية ولغة الحكم ، ولغة الثقـــافة التقليدية ، وتحل محلها فى الخطاب العامية ، مع أنها تدرس فى الابتدائى كأداة تواصل (هناك ما يسمى فى بعض الاقسام الابتدائيـــة بدرس المحادثة الذى يتدرب فيه التلاميذ على التخاطب بالفصيح)

والفصحى لها مستويـــات . أهمها اثنـــان : المستــــوى الكلاسيكى المضمون نحويا وبلاغيا وهو يستنتهم فحول كتـــاب القرن الرابع الهجرى وشعرائه ، وينسج على منوالهم ويكون عادة موغلا فى المحافظة على التقاليد اللغوية ، والاشكـــــــال الموروثـــة .

المستوى الثانى نجده أكثر تحررا من القواعد الكتـــابية القديمة وأدعى للانفتاح على التعابير الميسرة والالفاظ المطروقة القريبة من مفاهيم العامة ، وهذه اللغة وان كانت من حيــث الاصول لا تخرج عن البنية الكلاسيكية الا أنها أكثر دينامية ونشاطا مما جعلها تغتنى بسرعة وينمو محصولها ، ونجدها عموما مستعملة فى الصحافة والمسرح وأجهزة الاعلام المسموعة

والمرئية ، ويستعملها رجال التعليم فى دروسهم ونسمعها أيضا فى بعض المحافل الدينية والسياسية الخ ...

ويبدو أن الجيل الصاعد يميل الى استعمالها دون تهيب او خوف من اللحن كما كان الامر قديما (10) .

2) — العـــــاميـــة :

على المستوى التعبيرى تتحرر العامية الفصحى التى تستمد منها أصولها لمزيد من التعبير عن الحاجيات النفسية والاجتماعية التى تتجافى مع طبيعة الفصحى الثابتة والمقننة ، والتى ان استطاعت التعبير بدقة عن الامور العلمية ، فهى تحتاج الى كثير من الدفء والتلقائية للتعبير عن الخلجات النفسية وما يدور فى الوسط الخاص من انفعالات وتجارب حية ، لذلك يقول (برناربوتى) فى أحد الموسوعات المخصصة للغة (11) « اللغة الاليفة أغنى من المهذبة ، لان الاولى تؤدى الى مجموعة من التعابير المحفوظة والثانية هى دائمة التجدد والتغيير ... ».

والواقع ان الوضعية عند المتكلم العربى تختلف قليلا ، فالعربى عندما ينتقل من العامية الى الفصحى الحديثة (12) ، ينتقل من لغة الحديث الطلقة التلقائية الى لغة أكثر دقة وتحديدا وموضوعية فالفصحى بالنسبة للعامية هى الاداة الدقيقة فى نحوها وصرفها الغنية بمعجمها الهائل للتعبير عن نواحى الثقافة والعلوم لفظا وكتابة . . .

فالافضل ان نقول ان هناك عاميات حسب المناطق الجغرافية بالمغرب ، لها أصل واحد هو اللغة الفصحى ،

لكنها حسب ظروف الوسط اخذت طوابع خاصة فى الاصوات والدلالة والنحو ...

والعامية ، نظرا لعدم تقييدها ، انطلقت فى أجواء الحرية نشيطة تتلاءم مع كل الاحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى الوقت الذى احتفظت فيه الفصحى بطابعها الكلاسيكى الثابث ، ورغم مرونة العامية وتقلباتها المتصلة لم تنحرف عن عادتها التى لزمتها طيلة رحلتها ، وهى اتخاذها الفصحى دائما بمثابة المرجع référent فى كل المجالات .

والعامية تنتشر فى كل مناطق المغرب ، حتى الاماكن شبه المعزولة التى تستخدم اللهجات البربرية لا تجهلها وان لم تكن تتكلمها ، واعتقد أن دراسة العامية فى المغرب مرحلة ضرورية لابد من المرور منها لفهم مختلف تداخلاتها مع اللغات المتاحمة لها وحتى يتاتى اقامة اسس علمية لبيداغوجية معقولة لتدريس اللغة العربية الفصيحة .

3) — البربرية :

رأينا فيما سبق أن الذين يتكلمون هذه اللغة ، أو يستطيعون فهمها فى المغرب يمكن أن يصل الى الثلث (13) ، هذا خلاف السيد آكواو صاحب دراسة « لسان أهل تزنيت » (14) الذى يعتقد أن العدد قد يبلغ ثمانية ملايين ولست أدرى كيف حصل على هذا القدر الهائل ؟

ويبدو ان هناك دراسات قيمة عن البربرية فى شمال افريقيا عموما (15).

ويرى السيد آكواو ان البربرية فى المغرب توجد كلهجة على مستويين : الاول بالنسبة للفصحى اللغة الرسمية فى

البلاد ، والثانى بالنسبة للعامية المستعملة على نطاق واسع بين افراد الشعب ، وهو لا يستبعد وجود قرابة بين اللغتين وان كانت البربرية قد اتخذت مسارا مختلفا . . .

وبالنسبة لنا ، فان البربرية واقع محسوس لا مجال لتجاهله ، فهى جزء من كياننا القومى وتراثنا الاصيل وستكون الدراسة المقارنة بينها وبين الفصحى مثيرة لتعقب الاخطاء المتفشية فى كلام المتعلمين والناجمة عن تداخلها ، وسيكون هذا العمل من الاوليات الضرورية التى ستعتمد عليها اى منهجية موضوعية تتخذ لنفسها الطريق الفعلى لنشر الفصحى بين الناشئة المغربية .

4) — اللغات الاجنبية (الفرنسية)

ونعنى بها فى الدرجة الاولى اللغة الفرنسية ، لان الاسبانية مثلا كانت لغة الحماية فى الشمال لم يبق منها سوى الرواسب فى العامية المغربية هناك ، أما الان فقد حلت محلها الفرنسية بعد وحدة الشمال والجنوب (1956) ، أما الانجليزية أو الالمانية (وأخيرا الروسية)، فهى تدرس فى الثانوى فى المرتبة الثالثة ، لمدة ثلاث سنوات بالسلك الثانى ، وفى الجامعة تشتمل كلية الاداب على شعب قائمة بذاتها لكل من الانجليزية والاسبانية (أو الالمانية فى الطريق) وحتى الاشرطة السينمائية التى تعرضها قاعات المملكة المتكاملة بالانجليزية او الروسية وغيرها ، فهى تترجم الى الفرنسية قبل عرضها بالمغرب (16).

وتحكم الفرنسية فى المنهاج الدراسى الموجه لابناء المغاربة منذ السنة الثالثة من الابتدائى الى التعليم الجامعى واضح ، ويبدو أن تعليم الفرنسية فى بلدنا أكثر حيوية مما يتصور ، فهو بالمقارنة الى اللغة الوطنية يمتاز بحركته الدائبة وتغيير

مناهجه وطرقه ، وتدعيم ذلك بالارشادات الدقيقة والسهر على تطبيقها باحكام وتنطلق فلسفة هذا التعليم من معطيات علـم اللغة الحديث التى تعطى الاسبقية للخطب على لغة الكتابة والقراءة خصوصا بعد توجيهات 1960، وقد لقيت هذه التوجيهات بعد تطبيقها انتقادات عديدة ، على رأسها ما سجله احد المعنيين بتدريس الفرنسية (17) من أن تطبيق التعليمات التى تقول ان الغرض من تعميم اللغة الفرنسية هو ((خلق مقدرة لغوية عند كل تاميذ لاستعمالها فى الحياة)) معناه ((الفرنسة)) لحياتنا الاجتماعية والثقافية ، وهو يقترح ان تطبق فى اللغة العربية لكى تصبح لغة الخطاب وذلك اجدى ، اما اللغة الفرنسيـــه فيكفى ان ياخذها التلميذ كاداة لتدعيم تكوينه العلمى كما تحاول الجهات الرسمية أن تدعى • وهو بذلك يدعو الى الرجـــوع الطرق القديمه فى تلقى اللغات الاجنبية حتى لا تطغى بثقلهـــا على اللغة الوطنية ، لكن الملاحظ أن حياتنا منذ الحماية قــد اكتست طابع الازدواجية لا بفعل التعليم وحده وان كـــان لـــه حظ كبير فى تكييفها ، وانما جاء ذلك ايضـــا نتيجـــة الحيـــاة العصرية التى اخذها عن الاستعمار بمعانيها وأسمائها ، ويكفى القيام باختبار بسيط لقاموس اللهجة العـــامية لنجد ان جـــل المصطلحات الخاصة بالبيت والمعمل والتقنيات الحديثة معظمها اجنبى بفعل أجهزة الاعلام الفرنسية المبثوثة بيننا (18) ، كل هذه الاشياء دعت الى مزاحمة اللغة الوطنية وجعلتها معزولة فى وسطنا الاجتماعى ، كما انها عزلت على المستوى الجامعى، حيث تعطى المعاهد العلمية التى تضمن مستقبلا مغريا الدروس بالفرنسية ، بينمـــا بقيت اللغـــة العربية تتخصص فى الشعب الادبية ، والى حدما فى العلوم الاجتماعية •

واعتقد ان الطبقة الارستقراطية عندنا اكثر تعلقا من غيرها باللغات الاجنبية ولم تنتظر ان تجعل الدولة اللغة الفرنسية

وسيلة للتفتح على الحضارة الغربية لتعليمها لابنائها ، فهى قد استحدثت من اجلها تعليم أولى عصرى باهض الثمن فى المدن الكبيرة يدخله صبيانها بعد الثانية يبتدئون فيه تعلم اللغتين . الفرنسية والانجليزية قبل اتقان اللغة الوطنية . . .

عبـــاس الصورى

الهـــوامــش :

1 ـــ المقدمة ، المكتبة التجارية الكبرى ص 558

2 ـــ المقدمة ، المكتبة التجارية الكبرى . ص 558

3 ـــ المقدمة ، المكتبة التجارية الكبرى . ص 557 .

4 ـــ وهو احمد آكواو ، قام ببحث فى السنة الماضية لنيـــل دبلوم الدراسات العليا بالسوربون عن (لغة اهـــل تزنيت) تدم بحثه فى دجنبر 1976 .

5 ـــ عبد الله العروى ... نشر ماسبيرو 1977، ص 38.

6 ـــ دانييل نوان : سكان البادية بالمغرب .

7 ـــ نفس المرجع ص. 70

8 ـــ نفس المرجع ص 92 .

9 ــ معظم ما يدرسه التلاميذ فى الشعبة الادبية لا يخرج عن هذا النطاق ، انظر مثلا مقرر السنة السادسة .

10 ــ كان لدى المتكلمين بالعربية مركب الخوف، من اللحن منذ القديم ، فالحجاج بما عهد فيه من فصاحة والمام بكلام العرب كان يسأل مجلسه عن الاخطاء التى يقع فيها ويدعى عبد الملك بن مروان الاموى أن الهرم اسرع اليه بفعل الخوف من اللحن وصعود المنابر .. الخ .

11 ــ انظر الاستبيان فى الملحقات .

12 ــ موسى الشامى فى مقال بعنوان « الازدواجية اللغوية » نشره بالمحرر الثقافى فى 16 نونبر 1975 .

13 ــ انظر كتاب (سكان البادية بالمغرب) (لدانيال نوال ص 92)

14 ــ انظر الملاحظة (4) ص. 13 من بحثه .

15 ــ انظر كتبات أندرى باس مثلا ، والتى تعددت فى لهجات الجزائر المغرب ...

16 ــ فى الوقت الذى تعرض فيه هذه الاشرطة نفسها فى فرنسا بلغتها الاصلية .

17 ــ موسى الشامى ، انظر مقاله المذكور (المحرر 16 . 11. 1975)

18 ــ لنا اذاعة بالفرنسية ترسل على أمواجها طيلة النهار ، وجزء من التلفزة زيادة على الكتب والمجلات والسينما الخ ... التى تستعمل الفرنسية كأداة تبليغ وكأن الشعب المغربى لا يختلف عن الشعب الفرنسى فى شىء

لست متفقا يا سولجنستين

بقلـــم : الان بـــوسكـــى

ترجمة : د. حسن المنيعـــى

لقد ورد فى بعض مقالاتك انك تتقبل مسبقا كل التجـارب والضربات وأنواع الموت . فهذا شىء عجيب ، بل وانى لاقر ، مع العلم اننى سأبدو ممقوتا لدى الاطيـــاب من النـــاس فى هذا الكوكب ــ بأن سلوكك هذا ينطوى على شىء من المـــرض . وبالتالى فانى على استعداد ان أبدى كل ما فى وسعى لتنهـــار شيئا فشيئا . فهذا سيجعلك ، على الاقل ، تعانى وطأة الالــم لشعورك بانك لم تكن على صواب ، كما سيدفعك الى الإستسلام والتواضع .

ان التحدى يصبح سلوكا لا أخلاقيا انطلاقا من التفاخر . اما البطل فانه يتحمل النفى اذا كان دين الشعب يثقل كاهله ، اذ ليس من اللازم ان ينزل النبى موسى دون مستـــواه . فكـــم يحسد البطل حينما يحسن الانضواء فى الصف : الشىء الـــذى رفضت القيام به دائما ! لقد اصبحت بسرعة ضـــد الحكومـــة ، وتماديت فى موقفك الى درجة انك اعلنت بان الحكومة الحالية ليست شرعية . وهكذا فقد كنت تتمطش الى حكم يبدو متعاظما

اكثر مما هو خطير بالنسبة للذين تدعى انقاذهم ، كما كان ينضاف الى ذلك تعذيب للروح الصامدة ليجعلك شهيدا يثير الاشمئزاز .

* * *

فهل كان عليك أن تتصرف بطريقة أخرى ؟ لقد جرت الامور بسهولة . وعليه فانك حينما اتهمت أمة بكاملها قد أصبحت عنصرا ضارا بالنسبة للشعب برمته . اذ كان بامكانك — على مدى ضيقا وأقل علانية — أن تلجأ كل يوم الى اتحاد الكتاب أو الى بعض المسؤولين في الوزارات وادارات الشرطة للقيام بمبادرة من شانها أن تبدد بعض المتاعب ، وأن تخفف من حدة المآسى . فلو خلمت ذلك كنت ستبدو نافعا دون بهرجة ، بل ولربما كان بامكانك ، بعد تحمل ربع قرن من الصبر والشفقة ، أن تنقذ عشرات من الافراد . أفلا تعتقد اذن أنه سيكون من الايجابى لو انك ترافعت فى سر على اساس الاعتراف بالرحمة والصواب ؟ وهل كنت تظن أن الرحمة قد اقبرت فى نفوس الجلادين والشرطة ، ومنفذى القانون الصارم ؟ . لو انك تواضعت على الاقل لكنت قد خسرت المجد ، وقبعت نسبيا فى خى النسيان الشىء الذى يتعارض مع حاجتين جسيمتين لديك هما : العظمة المزعومة ولذتك الغامضة فى أن ترى نفسك معاقبا دائما . وأخيرا فقد صرحت بأنك لا تعترف اطلاقا بالسلطات الروسية مما جعلها تتصرف رغما عنها . على أنك كنت تلتمس ، عبر ابتزاز غريب بالرعب ، أن يوجه اليك أكبر عقاب . وحينما رفضته صرت تطالب به فى الحين .

* * *

قد كان على الحكومة السوفياتية — التى لا تعرف الدقة ولا التسامح — ان تلجا الى احدى الطرق الثلاث : (بقطع النظر

عن التزام الصمت الذى لم يعد لائقا فى الظروف الراهنة) أما الاعدام بدون محاكمة ، أو محاكمة تنتهى بالسجن ، أو النفى داخل معسكر ، أو الطرد الى الخارج . وحيث أننا لم نعد نعيش فى زمن ((بيريا)) كما لم نعد نعدم الافراد كما لو كنا نشرب كاسا من نبيذ ((الكفاس)) ، فان محاكمة طويلة قد تؤدى الى احداث ردود فعل غير منتظرة ، كما أنها ستلزمنا على تنظيم حملة من رسائل اللوم يحررها مواطنون مذعورون ومهددون للتصريح بخيانتك . لذا فقد كان نفيك أنجع طريق . ومع أنه يبدو تصرفا غير لبق فانه يعد دليلا قاطعا على الاعتدال فى الحكم الذى يثير الدهشة لدى كل الذين يريدون مقارنة حكومة ((برجنيف)) بحكومة الحاكم التشيلى ((بينوشى)) ويشرذمة ضباط اليونان . لقد كانت معلا ادانتك بسيطة . أما عملية أرسالك كطرد بريدى الى المانيا (براندت) وتحت رقابة مشددة ، فانه يعد عملا نقيا وخطوة ايجابية وسريعة . فها انت اذن تحل بين ظهرانينا . وعليه فان السؤال المطروح يبدو بدوره بسيطا : ماذا ستفعل بهذه الحرية اللامنتظرة التى لست مستعدا للاستفادة منها داخل مجتمع لا يريد ضياعك ؟ انك بعيد عن كل خطر ، وانى لامل ان تتلخص من حيرتك قدر الامكان .

* * *

نحن مضطرون لوضع الثقة فى الشخصية التى تمثلها .

وعلى استمار آخر فانى أثق فى الطريقة التى تحتضن بها الغرب ، وتسبله فى نطاق شعورك ، وتحكم عليه ، لانه ليست لدى سوى أمنية واحدة : وهى أن تضع حدا للادانة التى توجهها الى روسيا . فاذا كانوا قد حملوك على الابتعاد فان عليك أن تفعل ذلك بكل بساطة دون أن تحاول تبرئة نفسك . ومادامت شهرتك يشوبها افراط لا يوجد الا فى عقول أصحاب التجمية

التي تطابق عاداتنا ، فانه ينبغي عليك ان تحد من حضورك في كل مكان . فلقد آن الاوان لان تتذرع بالتعب ، والكآبة ، والحزن أو أي شيء آخر من هذا القبيل ، كما آن الاوان للتحول فاذا كان من المفروض أن يحدث ذلك ، فان حدوثه سيكون بسيطا ومنهجيا . وفي انتظار أن تفعل ، عليك ان تتعرف على ... الغرب الذي لم يكن يجسد شيئا آخر بالنسبة اليك غير فكرة طوباوية ، والتي تصرفت باسمه بكل مضاضة وبكل ما تختزن في اعماقك من قوة .

* * *

كيف بامكانك أن توظف حريتك ؟ يجب أن تقسم العملية الى مرحلتين : أن تنظر أولا ، ثم تعمل على تكوين نفسك ثانية . لتنظر اذن ، فلسوف ترى أن ((غربنا)) ليس نعيما على الاطلاق اذا ما قارناه بجحيم روسيا كما تصفها . ومع أنه ليس في نيتي أن أؤكد لك بأن كلا النظامين يتساويان كما تتساوى الفلسفتان وطرقا العيش ، فاني سأكون مجنونا او منافقا أو خائنا اذا ما كتمت ميولي الى الغرب ، أو اذا ما قبلت كحقيقة ذلك الحب المعاكس الذي أكنه لا للاشتراكية كما تبدو اليوم في روسيا ، بل كما يمكن أن تصير ذات يوم في المطلق : اي في نطاق الغموض الذي يقوم عليه حلمي الباطني. انني من الغرب . لقد اخترته ، وتحملته ، وسئمت منه نوعا ما . وحتى لو هددت بالقتل فاني سانتمي اليه بكل جوارحي. لكنه يلزمني أن ارثي لما آل اليه . فهل تتحدد الحرية حينما تغدو اسرافا ، وفوضى ، وخمولا يعدم الاحساس ، وجهلا مريحا ، وتنافسا من أجل المصلحة ، وعمى يتجلى عن طريقه تكديس الاشياء اللامجدية والحاجيات التافهة ؟ وهل يبدو ((غرب سنة 1974)) شيئا آخر رغم حليه ، ونبوغه ،

وفنه الاصفر الذى يخترع الآلات المريحة التى تمنـــع التفكير ؟

* * *

لقد بحثت المانيا اولا ، ثم وجدت فيها ، دون شك ، كل شيء شديد النظافة ، هادئا ، مهذبا ، غزيرا ، غير صـــادق ، هينا ، بل يكاد يرضى الانسان حتى فى التظاهر . فالبيروقراطية هناك تبدو قوية ، والوجوه متفتحة رغم تصلبها . اما العزائم فانها مصقولة بينما تبدو الارواح نائمة والانجرار بعيدة عـــن الخجل . فلماذا ــ اذن ــ لا يزال يسمى هذا البلد «المانيا» ؟ فاذا كان من اللازم على المستشار « براندت » أن يستشعر كامل الغبطة لانه يحكم جمهورية ذهب خمسها الى روسيا ، وثلثها الى بولونيا ، ثم انتقت الاخر الى الشيوعية ونفوذها السوفياتى ، بينما ظل الباقى مستقلا ولكنه محكوم من لدن الفيالق المنتصرة التى كانت تجسد « الرايخ » ، اذا كان الامر كذلك فانه من السهل فى مثل هذه الظروف أن تكون ضربا من مثال وان كنت غير منشغل بمسؤولية هامة باستثناء السعادة الكبرى التـــى ينعم بها ستون ملونا من المواطنين يبحثون ــ عفوا ، انهم لا يبحثون كثيرا ــ عن هدف أسمى ، والذين يرددون ، اليوم ، فيما بينهم « بان الهدف الاسمى هو تشييد اوروبا الحلف الاطلسى بمساعدة الولايات المتحدة ».

لقد شاهدت هذا التفتات الذى تبقى من المانيا ، وادركت انه تخم ، ومستعد لاستئناف الجهاد باتفاق مع بعض البلـــدان الأخرى فمن المؤسف انه لا احد يريد الاستفادة من هذه الارادة القوية التى تبدو غير قابلة للتهذيب : أرى أننا لا نعبىء ابنـــاء هــــتـــلـــر وهيملـــر ولو من أجل قضية صالحة ، على اعتبار اننا نقرر الشيء الذى يعكس ان تقوم عليـــه هذه القضيـــة . ان

المانيا الثقافية لا زالت تنتشى بتحليل ماضيها الحديث . انها مذنبه ، ونحرص بدون انقطاع على ان نؤكد بانها مذنبة بالفعل ، وانها تريد استكبير عن خطيها ، وعليه فانها تضيع وقتهـا فى شراء المفانق ، والضمير ، وسيارات المرسيديس ، والاثم ، والرحلات السياسية الى بلدان البحر الابيض المتوسط ، وانسية مائة واحد من امثال ((جوته)) لا يستطيع أى واحد منهم باختصار أن يقدم للناس منظورا عن الكون يكون شبه أصيل وشبه حلمى أو مجنون . فهل هذا يسكر ؟

ان التعقل الذى تضخم اليوم دون أن تتقود شعلته أصبح يزرع فيما بين نهر الراين والايب وذلك لارضاء كل الذين يعبرون المانيا كارض محترمة يمكن اللجوء اليها عند الحاجة ، ومنها المادية على الخصوص . فلو أنها لن تتحرك فاننا سنعترف لها بالجميل مسبقا ! لكن ، هل يمكن أن نسمى ذلك هدفا أسمى ؟ أننى ابحث من جانبى منذ سنة 1945 عن كاتب المانى واحد أو موسيقى أو رسام يستطيع اثارة كوامن نفسى او قلب مظـاهر يقينى ، بيد أنى لا ألمس لدى كل واحد منهم سوى الاستقامة المزعجـة .

* * *

لقد رأيت ((سويسرا)) كذلك ، فاستقبلك هذا البلد بتذلل كما يستقبل أى سائح يملك عملات كثيرة ، ذلك ان السلام الابدى والسلام محتمل قد جعل من هذا الشعب الذى أسىء توحيده صندوقا فولاذيا لخزن الاموال تكسوه ثلوج جميلة . لا، انه لا ينبغى لك أن تلوم الكونفدرالية السويسرية لانها تشكل القوس، والخلاء ، والغياب . فهى تعتبر بالنسبة لكل انواع المرضى ، الذين يقضون فترة النقاهة ، المصحة .. التى تحلم بها والتى

تعالج فيها كذلك المركبات النفسية ، والطموح ، والفردانية ، والتسك ، والموهبة والنبوغ . فمن النادر أن تصادف شخصا واحدا لا ينفق معك بطريقة آلية ، ولا يبذل فى سبيل ذلك مجهودا محمودا كله تخلق يصل الى حدود الذكاء : اذ لا يكفى يا مديرى الخدم فى الفنادق أن تلبوا رغبات الزبناء ، بل عليكم أن تتنبأوا بها ، وتحققوها قبل أوانها ... لقد نظم هذا الشخص يومك ، وكان ألمانيا شيئا ما ، أما الثانى الذى أمدك ببعض الافكار الماهرة ، وان كانت غير عملية فى الجوهر ، فقد كان فرنسيا شيئا ما . وفيما يتعلق بالثالث الذى تاه معك فى حديث لبق أدركت من خلاله أنه كان يريد أن يخدعك فى الواقع ، فقد كان ايطاليا شيئا ما . فلا داعى لمؤاخذة السويسريين لانهم أمهر الحراس ، ولان مؤرخى المستقبل — اذا بقى بعضهم على قيد الحياة — سيلجأون اليهم ، عندما نكون قد تفانينا ، لدراسة ابداعاتنا الفنية . فياله من انتصار تلك القرون من السعادة الهادئة ، والجو المنعش الذى يدفعنا الى اقتناء أية فكرة ، وأية رغبة ملحة أو كراهية شافية :

ان انجلترا لتعتبر بلدا عجيبا يستحق كل شفقة فائضة . فانا لا أعرف أمة فى العالم نالت الشىء الكثير من جنس البشر كله ، لانها ظلت أكثر من تسعة قرون بعيدة عن كل الغزوات ، كما انها اتجهت يوما بعد يوم صوب هذه التسوية الاجتماعية وهذه الكرامة والعقل المتفتح الذى لا يسعنا الا أن نحسدها عليه . لقد أقامت امبراطورية دون أن تضطر الى تطبيق سياسة العنف التى نهجتها المملكات الاوروبية اذ أن بعض الذبذبات الرامية الى التحرير كانت كافية لدفعها الى تمكين مستعمراتها من الحصول على الاستقلال : لقد كسبت كل حربها التى لم تكن شرعية الا فى بعضها . فانظر اذن الى أين صارت . لقد أوشكت

ان تنهار ، وبالتالى فالى اى شىء تقود عشرة قرون من الحضارة والعظمة واللياقة ؟ ان انجلترا تعانى البرد والجوع ، وتضجر من الضباب الذى يكتنفها ، وتحتمى بامريكا ، وتذوب فى أوروبا كفضاء تسعى فى نطاقه الى ان تبدو متسترة . انها تتنكر فى شكل مومياء ، وتخفض صوتها ، وتتخلى عن شخصيتها الحقيقية . وبعد قليل سيكون مستوى الحياة فيها هو نفس المستوى الذى يوجد فى البرتغال أو فى البانيا فى انتظار أن يكــون مستــوى المستعمرات البرتغالية . وحتى لو كانت تقاسى المحن فقد كان بامكانها أن تقدم لنا بعض كبار العقول والمبدعين فى زمننــا . فرغم الخوف من الذات . والتحول امام المصير البورجوازى ، والروح المكلومة التى تصمد داخل الجسم ، والتجرد عن الجسد من شدة الضجر ، والتقمص الجديد عن طريق الضجر من الضجر نفسه ، فاى مخلوق استطاع ان يذهب بعيداً فى هذا التسلسل من أشكال الجحيم الجديرة بالشاعر « دانتى » والفنان « غويا » ان لم يكن اكبر الرسامين المحدثيــن الا وهــو الانجليــزى : « فرانسيس بيكون » .

* * *

لن اقدم لك درسا فى الجغرافيا السياسية ، ولست أحرص على ان أستعرض امامك هذه البلدان من الغرب التى يقتــرب بعضها من الاخر سنة بعد سنة . ولن أقول لك كم هى مذمومة كل مظاهر العيش فى امريكا وكذا مؤسساتها ، وعــاداتهــا ، وانطلاقاتها ، وسخافاتها ، ذلك أننى ساكون مضطرا فيما بعد على الاعتراف ــ حتى ولو كان ذلك بمحض أعجاب مزعج ــ بان حرية الرأى ، فى هذه الارض وحدها ودون غيرها ، تبدو شاملة ومهولة لا حدود لها ، بل انها تصل الى منتهى الصخب بما فى ذلك الفن والادب . لنبق اذن فى حدود هذه القارة التى

أنجبت سفوناروالى ، وجونه ، ورفاياك ، وموزار ، وبونابارت ، وماركس ، وفرنكو ، المتبرعين بالدماء وسفاكيها ، ولننقل كلمة عن ((فرنسا)) الحالية : نعم ، أقسم لك أن هذه التجربة صعبة على ، لا أستطيع القيام بها دون الشعور العميق بأننى خاطىء : كما هو الشأن بالنسبة لأى واحد يريد القيام بها مكانى • فمما لا شك فيه أنه لا توجد أية أرض تحت السموات يمكن فيهـا الانسان ملحاح أن يشبع فيها رغباته الحقيقية ، وأقصد منهـا على الخصوص تناقضاته الباطنية ، المتوسلة ، والمهانة ، ثـم المتسامية بدون انقطاع • فبامكانك أن تلاحظ هنا أن كل مواطن يتخذ لنفسه العديد من الإلهة ، والدساتير السياسية ، وأشكال الحب ، وطرق التعامل مع الفن ، والشقاء ، والسعـــادة ، ومعطيات الحياة • سوف تغتبط لا محالة ــ ومــن لا يكــون كذلك ــ عندما تطرق سمعك هذه الجملة البسيطة : ((صباح الخير يا سيدى ، كيف حالك ؟)) •

* * *

ولسوف تدرك بسرعة أن اللغة هى لعبة وطنية ، وأن الآراء التى تتغنها لا تلزم على الاطلاق من ينطق بها • فنحن نتكلم ، ونرسل بعض الشذ من الافكار الواحدة تلو الاخرى ، وأخيرا يتوقف عملنا عند هذا الحد ، ثم تعيدنا الخيبــة الـــى الصواب وذلك عبر بعض الحماس اللغوى • وهكذا فان موهبتنا تتحدد فى نطاق الكيمية التى تجعلنا نتلفظ جيدا بالكلمات • لقد عشنا منذ زمن طويل فى احضان الاوهام • فمن الاكيد اننا ربحنا الحرب العالمية الاولى دون اللجوء الى مساعدة خارجية ، كما انه من الاكيد أننا تحررنا بأنفسنا خلال الحرب التى تلتها ، وكنا لا نزال بفضل الجنرال ((ديغول)) أحدى الدول الكبرى الثلاث او الاربع ــ بل اذكى الدول على الاطلاق ــ منذ عشر سنين

تقريبا . أما فيما تبددت هذه الاكاذيب فاننا قد اكتشفنا كل اداة الاستهلاك لاننا التزمنا مبدأ واحدا : وهو أن نأكل جيدا ، وان نقوم بأحسن الاسفار . ومن ثم ، فان فرنسا كانت تبدو — ابان حكم لويس فليب ، ونابليون الثالث ، وبومبيدو — بلدا هادئا لا يهتم الا برخائه بعد ان تنكر فى لباس العالمية . لذلك تركنا التاريخ ينفلت من قبضة أيدينا ثم ارتضيناه بكامل المعاهم. فلتحاول انت كذلك أن تتذكر بأن احداث ((بيافرا)) و ((البنغال)) لم تثر لدى الافراد سوى بعض هزات الراس وذلـك اثنـاء شربهم أقداح نبيذ ((ابوجولى)) وابتلاعهم لمطـع الجبـن . فتسعه فرنسيين من عشرة (ولن أقول من باب العفة تسعـا وتسعين وتسع مائة من الفرنسيين) يرون انهم يشقون فى عملهم ، الشيء الذى يجعلهم يستحقون أوقات فراغهم ومتعها. فمجرد ما تحتضنهم بيوتهم تراهم يستهزئون بالعصر ، ويغوصون فى البلادة . وبما أن أكبر مشكلات الساعة تجد حلها دون تدخلهم فانهم يعتبرون أنه من الطبيعى عدم التفكير فيها . وحيث أن غيرهم هم المسؤولون عن ((هيروشيما)) وغزو القمر فان عليهم أن يتدبروا أمورهم بدونهم .. أن البلادة الفرنسية تسـاوى بلادة الدانمارك ، أو النمسا ، او بلجيكا ، أو موناكو . فهى تبدو نوعا ما — وبالنسبة لغيرها — أكثر هذرا وأكثر ادعاء . وبما أننا نريد الهروب فقد ابتلعنا آلاتنا وسرعة سياراتنا . لقد كانت الحرية فى القرن الماضى تنحصر أيضا فى اعادة التفكير فلماذا يلزمنا أن نبذل هذا المجهود من جديد ؟ اننا نشعر بالراحة داخل جلدتنا وان كنا ننقاد — شكليا — الى بعض النزفزات العابرة . وبما اننا لم نعد نقوم باى شيء فان الحفاظ على صيغة حياتنا يشع ، قبلا ، كاكبر انهماك ممل .

ان الحقد فى أن نكون جبناء وكائنات عادية يعتبر حقـا

مقدسا . فالديمقراطية كما نتصورها ليست اكثر من معاهدة تلزم الادارة والرعية . فما عاد للهدف الاسمى أى وجود لانه قد عوض بالضمان الاجتماعى الذى صار آله تفكيرنا الجديد . فبعد أن ساوت الايديولوجيات اصبحت تخوننا على ممر العصور كذلك نفكر . وعليه فاننا نحاول بطريقة ما ان نستفيد من الدولة وان نؤدى لها العديد من الضرائب لحمايتنا من كل الاخطار . واذا كنا نعطف فى بعض الاحيان على هذا الحزب السياسى أو نتقزز من الاحزاب الاخرى طيلة فترة قصيرة ، فان نزواتنا لاتدوم على الاطلاق . وحينما تحل مرحلة الانتخابات فاننا نختار الذين يسددون لنا نفقات حفلات التعميد ، وعمليات الجراحة ، وتهذيب طاقم اسناننا ، وحرائقنا ، وجنازاتنا ، كما نختار كل الذين يعدوننا بالسهر على شيخوختنا ، وخرفنا ابكور ، وعدم قدرتنا على التجاوز . وفى نفس الوقت من قيمنا الروحيه هى ما يسمى الثلاجه ، والسخان الاصطافيه والة الغسيل ، والترانزستور ، والحانة الصغيرة التى يجب اكتشافها ، والطائرات المتوجهه الى ((كوستابرافا)) ، والتلفاز ، والسينما . فلماذا تريد منا ان نغير هذا الوضع ؟ ومن ذا الذى يستطيع الاقدام على تجريدنا من كل هذه الاشياء القيمة التى صرنا عبيدها السعداء ؟ .

فلو كان اليسار فى الحكم ـــ والامر يتعلق بصناديق الاقتراع لترشيحه أو عدم ترشيحه لذلك ـــ فهل تعتقد أن وجوه الحياة ستتغير فى فرنسا اذا استثنينا بعض التاميمات وتوزيعا خجولا لبعض المداخيل ؟ اننا نغلق عيوننا ونتأثر على بعد . ولاننا شعب سعيد فاننا نلتمس من التاريخ ـــ بعد ان نسدى اليه نصيحة خجولة لا يعيرها ادنى اهتمام ـــ ان يستمر فى طريقه دون محاولة ازعاجنا . فلماذا يلزمنا دائما ان نراعى

التضحية ، والعمل المشترك ، والتمرد ولو كان ترحب عنـــد الاقتصاء لمهرج او مهرجين : كذلك نعامل كتابنا ، ومبدعينا ، ومفكرينا الذين يتميزون بأساسهم . فنحن لا نتحملهم الا بمقدار ما يمسكون عن طرح خمولنا الفكرى . انــزل الـــى الشـــارع واسأل المارة : من هو بيير جان جوف ، وسان جون بيرس ، ورونى تشار أو باتنوس ؟ لا احد يستطيع الجواب . لذا فان اكبر شعرائنا يعانون الفقر . فاذا كانت الممول الجريئة تكمم فى بلدكم ، فاننا نقاطعها اقتصاديا ، وماديا ، وتجاريا : فى بلد ما عاد يسود فيه سوى قانون العرض والطلب بعد أن ترك طابور تنفيذ الاعدام المجال للاختناق ابطىء .

*　　*　　*

ان آخر انتفاضة قمنا بها هى احداث مايو 68 التى كلفتنا ضحية واحدة . فهل ترى انها كانت انتفاضة معقولة ؟ فلـــو أننا هددنا غدا باندلاع حرب ، فانى على يقين أننا سنستسلم فى اليوم نفسه وذلك لانقاذ نصف مليون من الارواح اللامجدية . ومنذ أسابيع أوشكت مجموعة كبيرة من الدول العربية أن تحطم نظام حياتنا . فهل تظن أننا فكرنا منهجيا أن نجعل فى حالـــة تأهب ستمائة من الجنود المظليين وذلك للقيام بوضع الغام — مجرد ثلاثة لا اقل ولا اكثر — فى مدخل الخليج الفارسى ؟ فأين هى القوة الداخلية ؟ وأين هى البسطة وحاجتنا الى المخاطرة التى نقوم بها بكل افتخار ؟ لقد اخترنا التسويات الرديئة التى لاتقينا من أى خطر فى المستقبل ، وقمنا بصيانة وداعتنا لاننا نتجلى دائما كامتع البلدان التافهة .. لقد صارت كل دكتاتورية تنتهى اليوم باتخاذ أشكال ليبرالية كما أصبحت الديمقراطيـــة تنحط الى درجة التعفن . وحيث أنك فضلت الاختيار الثانى فانى أؤكد لك ان البديل لايبدو أكثر اشراقا . فلسوف يأتى يوم يمل

فيه ابناؤنا مظاهر الزيف التى تطبع حياتنا ، ثم يشعلون النار فى الدولة . فاى نظام ، واية دكتاتورية سنبنى حينذاك ؟

* * *

كنت اقول لك بكل فظاظة اننا لا نرحب بك ، لان المسؤولية تقع عليك اولا . وبما انك تتجسد العداوة السوفياتيه الاكثر عنادا — سواء كنت واعيا بذلك أم لا — فقد أصبحت عذرا لكل المبالغات : ذلك أن اقصى اليمين لا يؤمن الا بشخصك وحدا الرجعية ، والفاشستية الجديدة ، والنازية الحديثة . انهم يتناسون آلامك بل وحتى السبب الاول لموقفك ، ولايريدون ان يروا فيك سوى السلاح الذى تشهره فى وجه وطنك والحجه التى تدفعهم الى خوض غمار الحرب لتحريـــره مـــن قبضـــة الدكتاتوريين السفاكين للدماء . فانت رهينة لديهم . لذا فانه من المحتم عليك أن تتحول . انك تمتلك ما نسميه عندنا «الصورة الرفيعة» والتى نغدو بشعة لدى . فاذا انت لم تبذل جهـــدا كبيرا لتكذيب تلك الصورة فانك ستصير وزنا ميتا يصعب كسبه من جديد . ولكى تضع حدا لكل أنواع الهستيريا فانى اطلب منك، باسم الحقيقة ، أن تعيد التفكير فيما صرت عليه وأن تدع المبدع الحقيقى — ان كان يوجد فعلا — يحل فيك محـــل المجادل ، ومحل « راسبوتين » الانانية المفزعة . لقد كنـــت الحاكم والمتهم (بالكسر) ، والقائد الشجاع ، والنموذج ، والبطل، ونبراسا ينير عذابات الليل ، ولسوف يكون من باب الانحراف ان تظل كذلك فى نطاق حريتك . فلتتستر .

* * *

فيا دروجوى ، ويا وفاجيبمى والكسندر ايزايفتش ! مـــا عسانا نفعل انا وانت بالحرارة الانسانية ؟ يخيل الى انى احماك

ما تطيق ولو انى امحضك الحب الكثير خصوصا عندما لا اجبر على التمكير . لقد عرفت الشر اكثر من اى انسان آخر فى زمننا هذا ، ولـك الحق قبل غيرك ان تتمتع قليلا بهـذا ((الغرب)) حيث يمكن لنا أن نلاحظ فى ألف جزء من اطرامه أن البقاء على الحياة يعد متعه هائلة . تمسك بذراعى الذى لا طلعك على مفاتنه التى لا مثيل لها .. تعال معى لترى مدينه البندقية وهى تزهو بألوانها البرتقالية الممزوجه بالبياض الناصع ، وباصباغها الذهبية التى تغوص فى قعر الماء بينما تتشكل النحاسية منهـا امواجا ساعه حلول المساء حيث تصدح آنذاك الحان الموسيقى الراقصة فى نسخة الافاق الرملية والنظرات الحادة للفتيات . تعال معى كذلك لتشاهد لوحات الرسامين فان لديك (مـن جان وبروج) ليعتريك فيها بعد شعور بالخلود العميق والطيف وتدرك ان الخالق قد حل ذات يوم بريشة رجل ما ... تعال الى ((أوطان)) و ((فزلى)) فسوف تتساءل عن الشكل الذى يوجد عليه كل شىء مقدس ، ثم تنتهى الى القول بانه يبدو فى الوقت نفسه ملموسا كاليد ومؤلما كالندم ، وفجأة يتجلى تجريديا فى شكل معين هندسى أو غامضا كرمز لا نتعرف فيه على اى شىء ... تعال الى قرطبة ، هذا الجزء من الاندلس الـذى امتزجت فيه الى حدود الموت ثلاث حضارات ثم انقرضت بعد ذلك وهى تجتر أعمق نفس من النبوغ .. تعال الى ((منهاطان)) لتعلم أنه بعيدا عن أسوأ النوايا الانسانية يتم ، كمعجـزة ، تشييد معبد من الاسمنت ، والفولاذ ، والبلور ، ثم يعقـب بمعبد آخر يحاط فورا بمائة معبد ، ومع ذلك فاننا لا ندرى ما هى القوة التى يصبو الى تمجيدها هذا التشييد .

* * *

اننى اعرف سهلا خجولا يقع بين ((بورتو)) و ((براغا))

على بعد مائتين كيلومتر من اسبانيا حيث تتفتح معا فى أواخر شهر فبراير ورود السنط العملاقة والاوكاليبتوس . فليس يوجد على الارض عطر كعطرها . كما أعرف على شاطىء ((سكتلندة)) مدينة شيدت بكاملها من حجر الفرانيت اللامع ، وهى تعبر عن بهجتها بصوت مبحوح لانها استطاعت — بعد أن اجتاحها عواصف الشتاء واخترقت سماءها أسراب الفاق — ان تصمد فى وجه الرياح ، والثلوج ، والطيور ، والشياطين الغاضبة . اننى أعرف فى قلب بلاد الغواتيمالا قرية يتوجه فلاحوها بكرامة غريبة الى المسيح سائلين اياه ان يمدهم بحصاد وافر . وبمجرد ما تنتهى صلاتهم فانهم يقصدون أثناء أداء نفس الشعيرة معبودتهم ((مـــايـــا)) وذلك لتمنع وقوع الزلزال الذى يمن عن قدومه.. اننى أعرف جنوب نابولى سهلا خصبا تفيض أرضـــه بشتـــى النباتات حيث يهمس فيه الانسان لنفسه قائلا — بعد أن يجعل بين شفتيه زهرة لؤلؤ ويضع رجله فوق عمود اغريقى حقيقى — بأن قيمة الوردة الحقيقية تفوق قيمة الوردة المنقوشة على الرخام وان نبات المشقة اكثر اثارة من صورته التى ترصـــع جبـــين الفيلسوف بعد ان يخلد فى شكل كمثال يصنع من حجر السماق ... اننى اعرف ببستان سيرى ، فى مقاطعة الاوفيرن ، وعلى حافة طريق ثانوى قطعة من الارض محاطة بسياج من الخشب المنخور ، تلحق فى فضائها حشرات اليعسوب ، وتكسو جنباتها أشجار الصفصاف وازهار النرجس الاسلى ، كما تنبسط موقعها قيمة تمرح فى امتداد الافق . فما أن يجلس المرء هنالك حتى ينسى نفسه .. تعال اذن الى هذا المكان لتشعر بالراحة التامة التى يولدها النسيان والهدوء والعزلة .

* * *

وللاسف الشديد فانه ليس بامكانى ان اعطف عليك ،

لان هويتك تتجاوز الكائن البشرى الذى كنت تبدو عليه سابقا . لقد حذرتك عندما طلبت منك أن تعيد النظر الى نفسك ، ذلك أننى لم أحدثك عن الادب الى حد الآن . فانا لا أعتقد أن تكون أديبا بالمعنى الحقيقى للكلمة ، وليس لى ان أنكر بأنى آمل أن أراك أديبا فى يوم من الايام . وبما أنك بعثرت نفسك عبـــــر الوثائق ، والملفات ، والشهادات ، فقد التحقت بصفوف أولئك الذين يخيل اليهم أن الادب يرتبط ارتباطا وثيقا بالواقـع وأن عليه أن يعبر عن الحقيقة الانية . وحيث أنك تفتقر الى الخيال واللغز ، وشغف التعبير ، فقد دفعت عن قضية بعد أن كنت تدرك أن كل القضايا تصبح باطلة فى أســـرع وقـــت : اذ أن طبيعتها هى التى تدفع الى التجاوز . وبما أن الفن هو ، وحده الذى يمكنها من الاستمرار فقد أهملته فى مناجيك الاخيرين . وبالتالى فان اعتبار الادب من زاوية الربورتاج هو كل ما فرضته على الاشخاص المتحمسين اليك بعد ان شجعت بذلك سوقية الغرب واحتقاره ، الشىء الذى لايمكن أن يجعل من ظاهـــرة الفن سوى ظاهرة عرقية حقودة . لذا فانى لا أحتمل ان تتحدث أنت كذلك ، وبطريقة طازجة ـــ عن الوقائع المعاشة كما لو انك قد القيت فى سلة المهملات حب الكتابة الذى لقنك اياه كل من تورجنييف ، ودستوفسكى ، وتولستوى ، وتسكـــوف ، وتشيكوف ، واندرييف ، وباسترناك ، فماذا عسى سيكـــــون هينرتش بول ـــ وهو الانسان الواعى ـــ لو أنه اكتفى بصب اللعنات التى تنجلى بوضوح مثل لعناتك ؟ وماذا عسى سيكون سارتر ، وهو الكاتب الملتزم ، لو لم تكن لديه روعة ((الكلمات)) لتدارك بياناته الادبية .. اذ انك لم تبدع على الاطلاق ذلك النتاج الرائع الذى ينطوى على الذوق ، والاستمرار ، والتباعد . الى حد الساعة فانى لازلت اصر على انك غير قادر على القيام

بذلك . لقد ضحيت بكل شيء ، لأجل العصر الذى تميشه ، ومن ثم فقد جعلت نفسك ــ بكل انحطاط ــ فى مستوى الجمهور الاكثر ابتذالا الى أن صرت رهينة خطيرة تخول لاول قـادم اعتبارك شبـه أديـب .

* * *

انى لآمرك أن تغير ما بنفسك . فاحساسك لا يمت بصلة الى القرن العشرين لانه احساس يجسد القرن الذى سبقه . لتقرأ كافكا ، وبكيت ، وسان جون بيرس ، واتتخيل كل شـىء غريب لأن عظمة الانسان لاتكمن الا فى ممارسة ما هو معقول وما ورائى ، وجميل ، واسطورى .. اذهب الى متحف مكسيكو الانطربولو لترى أن مظاهر حكم الطبيعة . تتداخل فيما بينها ، وان العجائبى يهم الانسان بقدر ما تهمك هذه السيكولوجيـة المترفزة التى تجعل منها قاعدة للروابط المغشوشة .. حاول أن تشاهد شريط ((اوديسية الفضاء)) لتطهر نفسك من الاساليب الكتابية السامة التى لا تعرف غير الادانـة .. تخلـص مـن الواقعية ، وحول نفسك الى ارخص مبدأ جمالى : اى ذلـك المبدأ الاكثر خلودا والاقل منفعة .. كن اسطورة لا لحمـا ، واجعل من نفسك ضحية لكى يصبح الكلم شعيرة ، وأنشودة وقصيدة تعبر عن هدوء الكون .. اسحب المطلق من حـوض الغسيل الذى عصرته فيه .. ساعدنى ما دمت قويا ــ بـل فليساعد كلنا الاخر ــ على أن ابين عبر نتاجاتك المستقبليـة بأن الادب ليس قضية تواصل مباشر فحسب ، وأن البعـد اللامرئى الذى ينتجه الخيال والاسلوب ينطوى على رعشة من نوع آخر .

* * *

انني آسف ان يكون « سولجنسين » ما هو عليه الان . فمه ان يمحو صورة هذا امكان اذا كان يرغب فى ذلك ، وان يقدمه فى شكل « سولجنتسين » آخر اكثر عمقا ، ودقـه ، وديمومه ، واكثر تجردا عن ماساته الفردية ، واستخفافا — بل بدءه — بالظروف التاريخيه والاجتماعية التى اوجدته . صحيح أنه من الاهانة ان نفهم الانسان فى عصرنا هذا من طرف الجميع، فحاول مع ذلك ان تاخذ بعض الارواح والمعقول ، المطلـق ، والبحث ، والكتابة التى تكتفى بنفسهـا .

ولتذهب فى أمـان .

لا . اذهب فى غير أمان يا من صرت عرقلة فى وجـه الادب .

الان بـوسكـى

بـاريس — فبـرايـر 1974

عبد الكريم الطبال

الاصدقاء

يا ايها الاحباب
يا طيورنا المهاجرة
باسم الطواف فى الزنزانة
باسم الصلاة فى القنيطرة
سنفتح السماء المغلقة
فليرفعوا الجبال من جدران
وليسبكوا البحار من قضبان
فباسمكم .. يا ايها الاطياف
ستسقط الجبال
يجف الماء فى البحار
وينتهى عصر الابواب السبعة

* * *

يـــا أيهـــا الاحبـــاب

أنتـــم دائمـــا فى الخـــاطـــر

بكـــم أفكـــر اذا ارتحلـــت او قمـــت

بكـــم احس أن كرهـــت أو عشقـــت

تمـــوج فـــى حنجـــرتـــى اصـــواتكـــم

بكـــم اهمس فى أذن الحبيبـــة الحـــزينـــة

بكـــم أصـــرخ فى وجـــه القبيلـــة

نطـــل من عينـــى .. عيـــونكـــم

فلســـت أشهد ســـوى القـــرصـــانن فى ابحـــر

والســـم فى الطعـــام والشـــراب

والليـــل فى عـــز النهـــار

تسيـــر قدمـــى علـــى خطـــى اقـــدامكـــم

من الـــدهليـــز للـــدهليـــز

مـــن غرفة التحقيـــق .. عبـــر غرفـــة التعذيـــب

تســـال عـــن احـــوالكـــم

يـــا ايهـــا الاحبـــاب

امكـــم تســـال عنكـــم فى كـــل صبـــاح

تبكــى عليكــم فـــى كل مســـــاء

ونحن الاهل دائما نسال فى شوارع القنيطرة

عن الطيـــور الغـــائبـــة

عـــن الاطيـــاف الحـــاضـــرة

فبـــاسمكـــم . يـــا ايهـــا الاحبـــاب

سنفتـــح السمـــاء المغلقـــة

عبد الكريم الطبـــال

عبده جبران

القراءة في دولاب الموت

في تأوهه هذا الوجه يشتهى بعذاب الكلام ، يعاين
وقتا لا تسميه الالفاظ ، بين هموم زمان خصى
وزجاجات يجاوره وطن مدفون حوافر هذا
الليل المسكن بصوت الضفادع ، فيها تجار القبيلة
يبتاعون رأس الحلاج دنما للارواح الشريرة

ما عليك اذا كنت صعلوكا ، افردته العشيرة
باسم القانون القبلي ، فالنخل لا يسمق الا صلبا
والدنيا وجهان : مقتول وقاتل

* * *

افتح دولاب الموت ، فاقرأ سفر التيه مختوما
بالنار ، يجل الشك في ذاتي ، فأحسب جلدي
ماء يجف داخل « سنتياغو » او يقتن في
ساحات « ظفار »

اتهجى التراب ولا اتهجى الكتابة ، يوما فيوما
أهرب احزاني خارج الاوراق ، بعيدا عن حصار

الثلــج ، فاقرأ بــاطــن كفــى لوحــا يحــل الشــك فــى ذاتــى ، فــاظــن نــداءك حــرفــا يلقــن فى « بيــروت » لكنــه كــان حريقــا مشتعــلا بالحقــد القبلــى

يــا بعــد مــا بين السيــف والحلــم الســاكن فينــا !

* * *

من ينتشــل المــاء من المــاء ؟
وحتــام يبقــى هــذا الجفــاف عــلامــة مــوت ؟
هــو ذا البحــر يخــرج مــن ضيــق الارض ، يبحــث عــن لــونــه فى الليــل .

من منــا يستطيــع اعــادة خلقــه أو نشاته الاولى ؟!!
غــائبــا / حــاضرا تدخل ابواب الحلــم الخمرية ، مجبورا / قلقــا تفتــح دولاب المــوت ، فتقــرأ مــوتــا اســود يكتنــف الارض ، مــوتــا يشكلــه السلــم معجــونــا بعصــارات النفــط والارقــام المالية .

* * *

حتــام يظــل الانســـان يطــارد ظلــه فى الظــل ؟

* * *

متالمــة اظفــارى أنشبهــا فــى خــواء اليــد الممتــدة نحــوى ، أهــوى فى قــرارات داء يســرى فى داخلــى شلــلا بــاردا ، اشعــل أتعــابــى فى زهــوك يــا امــرأة

الاسفـــار الطـــالــق ، حيـــن ترومـيـــن خـــلاصـــي بيـــن سيقـــاتـــك

* * *

من يجعـــل مـــن قـــاتلـــه معبـــودا ؟ !!

* * *

يا ربيبـــة « يوغرطه » آن للمـــوت أن يرـــحل ، فالطيف المكســـور يلم شظـــايـــاه ، فـــانيـــا فى تـــلال الضوء ، يغادر ظهر سفينة « نوح » ليجرب هول الطوفـــان
ما عليـــه اذا صـــار نجمـــا يطـــل
صعلـــوكـــا يـــرفـــع سيفـــه بـــاســـم الفقـــراء
فـــالدنيـــا ضـــدان : مقتول وقاتل

* * *

هـــذا « عمر » العربى ، قـــائمـــا فى ضوء المصباح ، يفتح دولاب المـــوت ، فيقـــرأ اسرار البيت الابيض
يـــومـــا فيـــومـــا ، يهـــرب أطـــراف الطيـــف نحـــو الوطن
مـــا عليـــه اذا صـــار راويـــة للفقـــراء
فى تـــأوه يـــرسم خـــارطـــة للفـــرح العربـــى . .
فـــالدنيـــا ضـــدان : مقتـــول وقـــاتـــل .

* * *

فليسقـــط هـــذا القـــاتل بيـــن السيـــف والجســـد !

البيضـــاء : عبده جبران

أحمد زيادى

الحصان

قصة قصيرة

ـ آش خاصك العريان ؟
ـ خاتم آمولاى ! !
« مثل شعبى »

ـ 1 ـ

ـ الحصان ظاهرة تقليدية مهمة ، لن نستغنى عنها ابدا !

نطت عيناه المحمرتان بين الصفوف المتكدسة الجامدة ، شمتا فى الجو شعورا بالاختناق والخوف .

رفع شيخ يده فوق الرؤوس المعممة ، أعطيت له الكلمة ، استدارت اليه كل الوجوه موشومة بعلامات الاستفهام والتعجب . قال بارتباك :

ـ لكنهم ياسيدى .. يقولون .. يقولون ان المحصول ضعيف . . و . .

خبط الطاولة بشدة :

ــ قلت لكم الف مرة .. هذا شيء لا يهمنى .. لست انا الذى ينزل الغيث ، ولا انا الذى ينبت الزرع .. وتأكدوا أنه لو ماتت القبيلة كلها جوعا لما تغير رأيي ــ الحصان وضعية ، الحصان سياسة ، الحصان عقلية ، فهمتمونى .. ومتى زال زالت معه اشياء كثيرة نحن نحب أن تبقى .. بل متى زال زلت انا وأنتم .. فهل تحبون الزوال ارضاء لهؤلاء الاجلاف ؟ !

استدارت الوجوه الى بعضها ، تبادلت فيما بينها علامات الاستفهام والتعجب وحروف النفى والاضراب .

ــ من جهتنا .. سنعطى كل المساعدات اللازمة للابقاء على الحصان .. مثلا سنحدث قانونا يعطى الحق فى أخذ سلف من القرض الفلاحى بفائدة مناسبة ، للذين يرغبون فى شراء الخيول، أو الذين يحتاجون الى مال اضافى لتوفير العلــف لخيولهــم . وسننظم مواسم وأسابيع ومسابقات بالاضـــافة الى الاعيـــاد والمناسبات الوطنية ، وسنخصص جوائز للفرسان الفـــائزين . وتشجيعا منا لحضور أكبر عدد من المشاركين وجلبا للمتفرجين ، ارتأينا أن نوزع العلف على الخيول المشاركة ، وأن نمنح عشرة دراهم يوميا على الفرسان المشاركين ، مكافأة لهم ، وأن نعطى رخصا سرية ببيع الخمر مع توصية أعوان السلطة بغض الطرف عن المخمورين والسكارى والمعربدين ، وأن نخصص خيمـــة أو اكثر للصلاة ، وأن نطلب من وزارة الاوقـــاف امدادنـــا ببعض الوعاظ والائمة ، وأن نوفر الاعداد الكافية من النســـاء لكـــل الرجال ، أن نرخص للمقامرين المراهقين بممارسة نشاطهم . بصفة عامة سنعطى أوامرنا باتخاذ كل التدابير الكفيلة بتشجيع الفلاحين على شراء الخيول والانغمار فى المواسم والانغماس فى جو الفروسية .. فهمتمونى ! ؟ !

جرع جرعات سريعة من كوب كان امامه ، واتاح الصمت الذى جثم فجاة على القاعة المختنقة فرصة للحاضرين ليملأوا صدورهم هواء ، ويريحون اعناقهم من التطلع الى المنصة .

لكن ما لبث الهواء الجامد ان عاد يخنق الانفاس .

ــ من ضمن هذه التدابير ايضا نخبركم باننا خولنا لكم كــل الصلاحيات لتدبير الوسائل التى ترونها ضرورية لتحقيق المراد .. ارهنوا مصالح هؤلاء الخبثاء الدنسين باقتناء الخيول والاحتفاظ بها .. انهم ماكرون ، فكونوا امكر منهم . وانهم انذال فكونوا انذل منهم .. لانهم لايستحيون ولا يخجلون لكنهم جبناء خوافون ، فخوفوهم ، ارهبوهم ، اقمعوهم .

كما نحيطكم علما باننا استحدثنا قانونا من شانه ان يساعدكم على تادية مهامكم فى يسر وسهولة ، يقضى بمنع بيع الخيــول بصفة قطعيــة .

مزقت خيمة الصمت تصفيقة ، تبعتها تصفيقــات مدوية.

ــ اننا حين نامركم بالقيام بشىء ، فاننا نهــىء لكم الظــروف المواتيــة ، ونساعدكم بالتدابير المناسبــة .

تصفيق ، هتاف ، اعقبتها وشوشة وهمس وتســاؤلات خرســاء .

ــ 2 ــ

العظام بارزة تكاد تفتق الجلد البالى ، البطن ، ضامر ، القوائم اعواد جافة تقرقع . يسحب خلفه عربة صدئة العجلات، تنبعث من حركتها البطيئة جلبة وضوضاء . العينان متعفنتان ينهشها الذباب والناموس ، لكن رغم ذلك كانتا طافحتين بالاحلام الجميلة ، والذكريات السعيدة .

ومن خلال العين المقرحة الاجفان ، تراءت الحقول الخضراء المائسة ، والفارس القديم يمتطى صهوة الحصان المطهم . الخنجر عن يمينه والسيف عن يساره ، وعلى ظهره بندقية تتوثب الى قذف الاعداء بالنيران المتاججة فى احشائها ، والحصان يهز راسه فى شموخ وعرفه يتطاير مع هزات راسه وقد عفره النقع المتطاير . وشيئا فشيئا تتجلى صورة الفارس . ما عدت تعرف ، عروق ساعده حبال حصير حلف . الجلد الملوح ملتصق بالعظام ، يغور حين تغور ، يبرز حين تبرز . والجلباب الرث يقاوم البلى . والعينان العمشاوان ما عادتا تبصران سوى الخيالات والاشباح .

تتلاشى صورة الحصان القديم ، تكسوها صورة حصان اشقر مسرج صافن ، يهز راسه وعنقه فى خيلاء . يربت رحل يمسك لجامه ، على ظهره ، وهو يوزع ابتساماته السخية بتزلف وتودد ، ويرمى شباكه فى جمل اجنبية يكررها بلا ملل :

— يا فارس هاك صهوة الحصان المغربى .

— يا جميلة هيا اركبى الحصان المغربى الاصيل .

— 3 —

من يصدق ان والدى كانت له حقول واسعة ، ورؤوس غنم وماعز تسد عين الشمس ، وبقرات وثيران وحمير وخيول يخنق نقعها المثار جوف الفضاء . من يصدق ذلك وهو يمر بقريتنا المنسية .. نتكدس فى خيمة كالاجنين ، لا متاع لنا غير حصان وسرج وعلف . الحصان يهز عرفه مرحا ، يضرب الارض بسنابكه فى انفه ، واذا تناولته اعيننا شزرا زمجر وصهل وذرى علينا التراب بحوافره ، وبال علينا وراث . ونحن نتجمع ، نتقلص ، ندخل بعضنا لنتيح له حيزا من وجودنا ، ومن بطنه مرت كل

ثروتنا وماجنينا غير الروث والغبار . والسرج منطرح كالجثة يشيع فى الخيمة رهبة الموت ، وينشر رائحة العرق التى علقت به طيلة أيام الفروسية ، ومن مسامه تبخرت كـل ممتلكاتنا ، وانتزع بهياته القايرتية الاحلام والآمال من نيائنا وغـرز فـى اجمادنا الكوابيس والالام ، وضعفت بنا الحياة ، فنازعنا فى الاشبار القليلة التى تبقت لنا منها . فتنازلنا له عن جزء مـن الخيمة نحن فى حاجة الى فتر منه . والعلف ، هو الشىء الوحيد الذى اجبرنا على عدم التفريط فيه . نموت كلنا جوعا وهـو موفور ، نبيع دماءنا ومياه وجوهنا وهو موفور ، نبيع لحمنـا وعرضنا وهو موفور ، نسرق نقتل لا نحاسب ما دام كل ذلـك من اجل توفير العلف للحصان .

لو كان آباؤنا يعلمون بأن وضعية الحصان ستكون كالتى هى عليه الان لدعوا الله سرا وعلانية أن يرزقنا ونريتنا خيلا ، وها نحن .. والحمد لله ، قد أدركنا هذا العمل فاللهم اجعلنا واجعل أولادنا وأهلنا وأحبابنا وكل من له صلة بنـا أو قرابة منـا ، خيـلا .

— 4 —

فى الساحة ترقص الخيول المصطنعة ، علـى سنـابكهـا الرشيقة ، تتحفز العدو ، فتردها الالجمة . تميل يمينا وتميل شمالا متاهبة للانطلاق ، صاهلة لاعكة الجمتها ، ورغوة خمرية توشح اشداقها .

يتمازح الفرسان ، يتضاحكون وهم ياخذون أماكنهم فى صف شيخ القبيلة ، تستقر العمائم البيضاء المكورة فى نهايات الامتدادات العمودية المهتزة ، كالنقط الانتقالية ، تفضح الجلابيب

الصوفية الشفافة القفاطين الملفية ذات الالوان الزاهية ، والمحافظ الجلدية المدلات الى اليمين ، والمعتقة باحزمة تتدلى الى الجهة اليسرى ، تتشبث بها خناجر مأسورة فى اغمدة فضيــة براقــة معقوفة الرؤوس .

الاطفال مشاة ، وعلى الحمير والبغال ، يحثون السيــر حاملين البنادق المحشوة بارودا الى الفرسان .

يبرز (العلاف) من بين الصفوف المحتشدة المتلاجبــة ، تشمل نظرته الثاقبة كل الفرسان ، كل الخيول ، تطول رقبته ، ترتفع فوق الكتفين ، فوق الصفوف ، فوق الخيام ، فوق سعف النخيل ، فوق البنايات ، تلامس ديما تائهة فى السماء ، تلاحقها الاعين ، تنثنى الاعناق الى الوراء ، يكاد المتفرجون يستلقــون على ظهورهم .

كبر (العلاف)، غمر صوته الجلبة والافاق ، ارخى اصبعا من اللجام ، تمطر الحصان :

ــ آراو الخيــل آسيــادى .

تهز الرؤوس ، تتمايل ، تدق القلوب ، تفر الدماء مــن من الوجنات ، تغور الرؤية فى العيون ، تضرب السنابك الصلبة الارض المتربة بلا مبلاة ، يتطاير الغبار ناسجا سحابة كميتيــة رقيقــة :

ــ بــالك الحــافــظ الاــه .

ترتخى الالجمة قليلا ، تندفع الجياد ، تتسابق الاعناق ، تتقارع الحوافر ، يتعالى النقع ، تصوب الفوهات الى الافاق ، توضع الاصابع على الازناد :

ـ الصلاة علـى النبـى •

تلتمع فى الليل الغبشى شهب حمراء زرقاء صفراء ، يعقبها دوى كالرعد ، ثم يهدأ كل شىء ، ويأخذ الليل فى الانجلاء رويدا رويدا ، وتعود الخيول ناكسة الرؤوس • والفرسـان عليهـا واجمون ، رؤوسهم تتأرجح على صدورهم ، لحاهم ورموشهم معفرة بالغبار ، بنادقهم المخصية مستكينة بالقـرب من اعنـاق الخيول المبتلة ، تسف التراب •

ركب (البهلول) حصان والده ليروضه كالعادة ، لكنه لم يأخذه اليوم الى السهول ، فى قلبه هموم فى حجم الجبال ، وفـى عينيه دموع فى دفق الانواء والامواج ، و فىنفسه سورة البراكين وما ينتويه لن يعرف أحد ولو شق صدره ، ومزق قلبه • ومتى استوى العزم حقيقة ولدت الاسرة من جديد ، ولن تخيف النواهى والموانع منذ تلك اللحظة .. يكفيه أنه اختار هذا الحل وارتضاه .. وعرضه على النجوم فما انطمست ، وعلى الشمس فما خبت وعلى الارض المسلوبة فما اندكت ولا هوت ، أبوه يتلاشى يوما بعد يوم ، وما عاد يقوى على ركوب الحصـان ، ولا عـادت الفروسية تنفخ فى جلده فيشمخ ويتعالى ، ولا عـادت عينـاه المتورمتان تقويان على الاحلام الجوفاء ، وهو الابن الاكبر مهيأ ليخلفه فى المسؤولية ، لكن حزنه على محنة الاسرة يكبر ويترسب فى أعماقه قيحا وصديدا ، يغشى عينيه ، يحيل الحياة فيهما خرابا وموتا ، وما يعترف لن يكشفه عراف ولا مخبر ، فوجهه مطموس الملامح ، لقد تفسخ منذ أعوام وعاد يرشح بتعبير ، ولا عادت تطفو عليه خيالات المشاعر أو ترتسم عليه ظلال الخواطر .. الاتون يتلظى فى داخله ، ولا خيط دخان يصاعد من أحشائه ، ووجهته لايعلمها أحد وما يبيته لن يفلح فضولى فى الوصول اليه.

ولما تجاوز السهول ، طالعته اكداس التراب والحجارة ، وفوهات الحفر والابار العميقة ، ابتسم واغمض اعينيه المثقلتين من السهر والاحزان ، ايحلم بحرية ، بامل ، بسعادة .

الدار البيضاء : أحمد زيادى

17 – 7 – 1975 .

أحمد المصباحي

البـــدايـــة

اقصـــوصـــة :

يمرون بظروف قاسية وصعبة ، خلقت فى الكثـــير منهـــم الاحساس بالياس ، يتبادلون الاراء للوصول الى حل ينقذهـــم من أزمة شعروا بخطورتها . بالقرب من مقر اجتماعهم تمتـــد أرض جرداء ، واسعة على بعد النظر ، مرت عليها يد النسيان فكانت مقصدا لذوى النيات السيئة ، تحتضنها من الجانبين بناية آهلة بالسكان ، للنظرة الاولى تهتدى لتحديد خطوط حياتهم ، قديمة استهدفت لحملات الطبيعة والانسان والحيوان وهذا وجد فيها مرتعا خصبا ، لم يفكر منذ نزوحه الى الارض المجـــاورة للبناية باستبدالها بأخرى ، متسللا اليها بالليل كما بالنهار نهبا للخيرات ، معتدا بماضيه وحاضره ذللا له الصعاب يضطرهم اليها السكان بين وقت وآخر . ما من زائر غريب عن البناية الا وحيره الوضع المزرى الذى يتخبط فيه السكان ، أينما التفتت ، وحيثما خطا يفاجأ بفار يتهادى فى تؤدة آنا مطمئنا كأن البيت بيته ، اذا ما استيقظت غريزته العدوانية بشن ضربة قاتلة ضده انتصب له الفار واقفا بالمرصاد « ويلى من زمان وأهله ، أهينت فيه كرامة الانسان وديست من قبل من ... ؟ الفئران لو قبل

لى هذ. أر قرت عنه لها صدقته ما بقيت حيا ولكن أن أشاهده بعينى الاثنتين ! ابنباية بما رحبت واتسمت لمشرات القاطنين عجزت عن ... ؟ واستكانت راضية بحالها ؟ »

رفع حدهم عقيرنه صارخا وعيناه الكحيلتان تلتمعان خبثا ومكرا :

ــ مالي راكم واجمين ؟ سلمتم بالهزيمة وقدمتم هدية لاعدائنا ماضيا حافلا بالامجاد ورثناه خلفا عن سلف ؟

رد عليـــه ثـــان :

ــ دعنـــا من الكـــلام الفارغ والزم الصمت كغيرك .

ــ ثالث « معه حق ، كيف يجوز لشرذمة تسعى للقضاء علينا ونبقى مكتوفى الايدى ! »

ــ الثانى «الا تكفون عن الثرثرة. دعونا نفكر فى انحل بجدية» .

ــ الاول يهمس للثالث فى اذنيه خوفا أن يسمعه الثانى «أفطنت الى سبب اهتمامه بالموضوع أكثر من اللازم ؟ يريد أن يزج بنا فى معركة تتاح له فيها الفرصة لتقوية نفـــوذه المـــادى والاجتماعى على حسابنـــا » .

ــ الثالث يرقص ذيله الطويل ملامسا ذيل صديقه ، موجهـــا خطابه للثانى « لم تفعل منذ اجتماعنا سوى الاستخفاف بمن يبدى رأيه . »

ــ رابع « اى راى اقترحته الا التشويش على مجلسنا . »

ــ الثانى « المعركة سائرة فى طريقها الينا ، احببنا أم كرهنا ، والعدو اتخذ لها احتياطات تتطلب منـــا تضحيات جسيمـــة

كاستدعاء بقية من يعنيهم الامر ، متناسين خلافاتنا توخيا للمصلحة العامة ، ، »

ــ الثالث « أوه ، كيف تريدنا أن ننسى ... »

ــ صوت فى آخر القاعة « دعه يتمم ... »

ــ الثانى « وبذلك ندرء خطرا قاب قوسين أو أدنى منا . »

ساد القاعة وجوم شامل ، يذكر بصفحات ماض مليئة بصراعات بينهم وبين المتغيبين من سكان البقعة نفسها ، كلهم فئران ولكن قليلا ما كانت الايام تؤلف بين قلوبهم الا وقت الشدائد . تولدت مع مر الزمن حزازات فرقت بين الجار وجاره، وانضوى كل فأر الى أقرب مجموعة يعطف عليها دعما لبقائها أمام مزاحمة الاخرين ، وسكان العمارة ، فى النهاية ، يؤدون الثمن فادحا ، فوجود الفئرأن فى سلمهم وحربهم مشروط باستمرار حياة انسانية بالبناية ، لولاها لما امتدت بهم الاقامة طويلا بالارض ، كيف يطلب منهم أن يتغاضوا عن احقادهم تجاه المتخلفين عن الاجتماع ؟ ولكن ايتركون العدو يفعل ما يشاء أذا الانانية وسوء التقدير ركبتا رؤوسهم .

نزلت الشركة بمعداتها الآلية والبشرية ، لوضع حد للاهمال عانت منه المنطقة لقرون خلت ، أضر بالبناية وسكانها، الفئران صيروها ملكا خاصا يتصرفن فيها . ذوو العمارات المجاورة حولوها الي مزبلة كبيرة يلقون فيها بفضلاتهم حتى فاتهم عمال النظافة ، عابروا السبيل يخترقون حرمتها من وقت لاخر، متخلصين من افرازاتهم او ملوحين بكاغد مضغوط أبيض مبقع فرغوا من التهام ما كان بداخله من بطاطس مقلاة . والسكان هم المعنيون قبل غيرهم بسلبيات وضعية كتلك ، انتفضوا ،

رفعوا شكايات لذوى الحل والعقد تطلب صاحب الارض ببنائها، الا يشتكى الناس من ازمة الكراء ؟ فلم يغض الطرف عن بقعة ذات موقع استراتيجي ؟ اعرض عنهم ، بررا عجزهم بكون الارض لاتعرف الاستقرار ، ما أن يستعملنا أحد حتى تنتقل الى ثانى وثالث ورابع .. الخ . الالواح الخشبية مطروحة بعشوائية ، بعد أيام ستتشهد الى بعضنا البعض واقفة كحاجز يحمى المارين بالشارع المحاذى للمنطقة ما قد ينجم من حوادث أثناء البناء . العمال مهتمون ببراكتهم القصديرية . حسموا فى شأن اختيـــار المكـــان المناسب لتركيبهـــا .

علت صاحب الاقتراح صفرة تركت شفتيـــه تحت رحمـــة اضطراب أبان عن فحى أسنانه الصغيرة الحاده « ما لهـــم لا يجيبون بلا او نعم ، أيتهددنى الخطر وحدى ؛ والعدو ، زاحف سوى هل سيفرق بين هذا وذاك ؟ »

اخذ الكلمة واقفا على مؤخرته ليصل صوته الى الجميـــع « هيا تكلموا ، افتو علينا برأى كيفما كان قبل وقوع المحذور ».
رابع « أنا متفق معـــك »

الاول « الا نفكر فى اقناع صاحب الارض بالتراجع عن مشروعه؟»
الثانى « كيف ؟ »

الاول « اوه تسألنى كيف تتغابي على على طريقة البلداء ».

بنطقه الكلمة الاخيرة انقض عليه الثانى يشبعه عضـــــا وخمشا فى حالة انهيار عصبى ضاعفت من حدة التوتر المخيمة على على الاجتماع .

سارع منا بالصفوف الامامية للتدخل ، علق صوت لم يعرف صاحبه « دعونـــا من الصبيانيات » .

ــ الثاني « ضرره أكثر من نفعه ».

ــ سمع صوت يهتف للاول « كمل اقتراحك ».

انتشل النداء الحاضرين من الهوة منحدرون اليها بقـوة خارج ارادتهم ، عاد هدوء نسبي الي القاعة والاول معتصم بصمته لا بريم الا زفرات مكبوتة يصعدها رغما عنه ، الالحاح يزداد حماسا لاتمام كلمته ؛ قام ينسحب ، اعترضوا طريقـه يرضونه بالقبل والعبارات المتملقة ترفع من معنويته الجريحة . الثانى ويحيط به ثلة من الاتباع . ترى آذانهم الطويلة تشنجت حرصا على ما يلقى بصوت خفيض ورؤوسهم الدقيقة استكانت تستوعب ما يدبره الاول وأشياعه من مخططات انستهم مـا يجرى بداخل القاعة ؛ حيث الاغلبية الساحقة تترقب صفـاء الجـو للاتفـاق على الحل .

ــ نطق الاول ، مهزوم النفس : نثنيه عن مشروعه بشرائها منه

انفجرت القاعة فى طلقة واحدة ، بقهقهة عالية هزت أركانها من اقصاها الى اقصاها ، أعقبتها صيحات مدوية « تعش تدم لنا ، الويل للمعتدى عليك » كانت الحادثة متنفسا استرجـع بواسطتها الحاضرون ثقتهم بنفسهم ، وهم على مبعدة بضعة امتار من خطر العمال ؛ سيحولون مملكة الفئران سابقا الى بناية تحمى التعساء وعديمى الحظ من عوادى الزمن الغادر .

ــ خامس « الم تلتفت يا عزيزى الى ما يجرى حولك ؟ الم يصل الى علمك ما أصاب القطعة الفلانية والفلانية و .. و .. ؟ كيف تحلم باستثناء مملكتنا عن اخواتها ، وهى على جانب من الاهمية تبوؤها مستقبلا زاهرا ؟

ــ الاول « كل واحد حر فيما يملك ، اليس الغاية ضمـان

الربح ؟ فلنعطه على قدر ما يطلب .»

ـــ صوت من وسط القاعة « ولهالا ؟ لن يعجزنا المال لحـل مشكلتنا »

ـــ الثانى « المسالة فى غاية التعقيد ، صدر قانون يقضى بملء الثغرات الواقفة حجر عثرة فى سبيل تطور المدينة ».

ـــ سادس « تفكيـر بعبـد عن الواقع ».

ـــ الثانى « سمه ما شئت ، لم يبق مصير القطمة بيد فلان ، أو فرتلان » .

ـــ رابع « أنـا متفق معـك » .

ـــ اخـر « وانـا كذلـك .»

وتوالت البيعة وتواجه الطرفان . نجح الفئران فى لـم شملهم وتوحيد خطتهم وانهالت عليهم المساعدات جزافا أحسنوا التصرف فيها الى أبعد الحدود لشهرة الفئران بقدرتهم الطبيعية على الاتـلاف . تكبد العمـال خسـائر لا تعوض ، لاصطدامهم بتجربة ما سبق لهم ان جربوها لعدم معرفتهم بطبيعة المنطقه . لاقوا صعوبات جمة للاجهاز على المرحلة الاولى من عملهم . روائح كريهة تقتلع الاحشاء ، صخور عاتية تقطع عليهم سير نشاطهم ، ثم تحصل المفاجأة تعودوا على مصادفتها بشـوق كبير ، حين يقسم أحدهم بفاسه اللامعة ظهر فار الى شطرين ينز منهما دم ساخن قان ، يطلق قهقهة يهرع على اثرها بقيـة الرفاق لمحاصرة الضحية بعيونهم المتشفية وتعاليقهم الساخرة « انظر الي بطنه . كم كلف السكان غاليا حتى انتفخ بهـذا الشكل المقرف »« الحرامي لابد انه سارق قميصي نشرته البارحة

على سطح البراكة فلم اعثر نه على أثر » « من يجادلنى فى انه ليس هو الذى هم الليلة الماضية لتسميم جسمى بعضة من أسنانه ... » كل ما كان فى حوزتهم ، كبيرا أو صغيرا صالحا للاستعمال أولا ، الا ويفتقدونه فى اليوم التالى . انتبهوا الى غياب بعض من أدوات عملهم فشلوا فى العثور عليها ، استبد بهم جزع كبير احدث البلبله فى نظام أشغالهم اليومية ، قدروا معها لاول مرة خطورة المعركة ، من يدرى انهم يجدون أنفسهم ذات صباح عزلا من السلاح نهبه منهم العدو ؟ ومن يدرى أن الفئران سيشنون عليهم هجوما مكثفا ومسلحا بأدوات العمال ذاتها ، من فأس ، ورفش ومطرقة ومجرفة .. ؟

طال الامد كثيرا بالسياج الخشبى مضروبا حول الارض حذا بالمارة أطرح علامات استفهام كبيرة عن مدى نجاح المشروع . ثم لا يتورعون عن مد أبصارهم من منافذ الخشب ليطلعوا على السر المحجوب ، فلا يشفون غليلهم ينصرفون وعلامات الشك ما تزل مرسومة على الجباه ، حاسدين سكان العمارة المجاورة للارض المحتفظين بالسر لوجدهم كحق من حقوقهم المشروعة ريثما تأتى أعمال البناء ، ساهموا فيها بنصيبهم ثمارها المرجوة .

لم يبق لفار اثر ، سحق الجميع بقوة ارادة العمال ، قضوا وقتا طويلا ، بعد أن قلبوا الارض رأسا على قلب ، ينتظرون فقط ظهور فار حائر مفزوع ليطاردونه حينا ، قبل الشروع فى الخطوة التالية حفر الاسس العميقة ترسو عليها العمارة الجديدة ، قرر أصحابها أن تكون مثالا فريدا لا مكان فيه لمضاربة السماسرة ومصاصى الدماء ، يجعلون شققها مفتوحة فى وجه التعساء وعدمى الحظ .

تركت البشائر الاولى لعمارة المستقبل انطباعات متباينة. عدد كبير لم يصدق ان الارض الخراب سيتغير وجهها لهذا الحد ضاربة صفحا عن كل ما يمت الى الماضى بصلة . أين الفئران المتغطرسة ؟ وهضبة الازبال المتنامية ؟ بينما استبشر غيرهسم خيرا بعمارة المستقبل ، طالما بقيت ارضيتها تحت رحمة الاهمال والاهمال والانتظار ؛ وتعاظم فرحهم لما وصلتهم اشاعات تروج ان ما لحق بالبقعة سيعم ، عما قريب ، بقية البقع الاخرى اذ بمجرد ما تنفض شركة العمال يدها من البناية الحالية ستحمل أدوات عملها الى المنطقة المجاورة تطبيقا للقانون القاضى بملء ثغرات المدينة التى تقف حجر عثرة فى سبيل التطور .

الدار البيضاء : إ. المصباحي

ادريس الصغير

ورغم ذلك حلق العصفور في السماء

(أقصوصة)

لطقطقات الآلة الكاتبة رجع فى قلبى . وشمس البلد الحبيب تغازلنى من النافذة المشرعة المصراعين . خمنت جيدا . هذا الرجع ليس خوفا . فانا منذ وعيت لم اعرف الخوف يوما ، لاننى لاأملك شيئا بتاتا أخاف اضاعته أو فقده . كانت الآلة الكاتبة تسير بالورقة الى اقصى اليسار ، لكن الموظف يمدها بدفعة من يده الى اقصى اليمين . ثم لا تلبث الورقة ان تعاود مسيرتها فى تحد واصرار . وجدت لذة عظمى فى التفكير فى هذه الآلة الكاتبة . انها ترسم مصيرى . لكنها ما تفتأ تتحدى الموظف فى ثقة . حولت عينى نحو الموظف ذى الشارب الكث والطلعة الجافة الصارمة . كان فى معركة حقيقية ، لكن الآلة لم تكن لتجهد نفسها . عجيب هذا التزاوج عند آلة حديدية . السكون والحركة . الاستسلام والتحدى المطاوعة والاصرار . قلت فى نفسى . لا يملك هذا الموظف فى الاخير الا ان يسلم بامر لابد هو واقع . فعند آخر كلمة يخطها لابد ان تكون الآلة قد

اخذت الورقة الى اقصى اليسار . من النافذة كانت شمس الوطن الحبيب تغازلنى . شمس الضحى . هذه الشمس التى تسفع الآن حتما جباه الكثيرين اشقياء العالم فى الحقل والضيعات والاوراش . كان الكرسى الذى اقعده ردىء الصنع مما سبب لى آلاما حادة فى ظهرى ومؤخرتى .

أنا والموظف .

يفصلنا عن بعضنا مكتب خشبى قديم مورست على سطحه وقوائمه ترميمات كثيرة . فكرت فى أنهم يتعمدون الاحتفاظ بهذا الجو زيادة فى الرهبة . كان جو الغرفة موحشا . وعلى حافة النافذة حط عصفور صغير ملون الريش . غرد بصوته الرخيم ثم طار محلقا فى الفضاء الفسيح . انا اتخن والآة ترسم مصيرى . كنت بين الفينة والاخرى ادلك معصمى تخفيفا لألم القيد الذى خلف فيهما شللا وخدرا . حاولت أن اتصور مقدار الناس الذين ولجوا قبلى هذا المكان . لابد أن يكون العدد أكبر من تصوراتى . وامتلأت الغرفة بالصياح واصوات الاحتجاج والتحدى .

— توزع المناشير ضد فرنسا يا كلب وانت مجرد عامل بسيط.

— تنادى بعودة الملك من المنفى ولست سوى فلاح خماس.

— تطالبين بالاستقلال ولست سوى عاطلة جاهلة .

— وانت ! لم تولد سوى امس وتنادى اليوم بالعدالة الاجتماعية والمساواة .

— اما انتم ، فلستم سوى جماعة تحاول الاخلال بالنظام والامن

تضايقت كثيرا من هذه الجلسة المتعبة ، بينما كان هو يؤدى عمله فى ميكانيكية روتينية .

كان يتمطى بين الفينة والاخرى ، فى جنين ظاهر الى فراشه المحشو بالصوف . كما انه كان يدخن بتلذذ ، بينما لم اكـن أمتص من دخينتى سوى الغضب والتحدى والحقد .

هب على من النافذة نسيم الوطن الحبيب . كان عليلا . ملأت منه رئتى ما شاء الله لى أن أملأ . توقف الموظف عـن الكتابة . نظر الى شزرا يحاول استفزازى . لتسجـل اذن هذه الجريمة فى ملفى . يمكنكم كذلك اضافة مسألة اللهـج بالوطن ، فى السر والعلن . سجلى ايتها الآلة الكاتبة . سجلى عنى وعنهم وعنا بمداد الفخـر .

النافذة مشرعة المصراعين . الشمس ونسيم الوطن .
ــ لماذا . متى . كيف . اسكت . انطق . قف . انبطح . اجلس . اخلـع .

خارج الغرفة كان الناس يتكدسون كالسردين المعلب فـى الحافلات . يعملون . يعرقون . يتعبون . ثم يعودون مـسى المساء ليلتصق بعضهم باجساد بعض فى غرف ضيقة نتنـه . كانوا يطعمون فتات الخبز ويشربون اقداح الشاى الاسود . يبيعون أجسادهم مقابل قطعة سكر .

حط العصفور الصغير الملون الريش مرة ثانية على حافة النافذة . ارتحت كثيرا لسماعى تغريده الرخيم ، لكن الموظـف تضايق كثيرا فارتعش شاربه الكث وتقوس حاجباه ، ثم قام فى عصبية متجها صوب النافذة التى لم يكد يبلغها حتى كان الطائر يحلق بعيدا فى سماء الوطن . اشعل الموظف سيجارة ولعن كل العصافير والفراشات والحساسات ، ثم قال وعصبيته لم تفارقه بعد بان الغربان والعقبان وطائر العنقاء لابد ان يماؤوا السماء

ثم ضرب سطح المكتب بقبضة يده بقوة . لابد . تكررت الضربات ولازمه ((لابد)) مرات كثيرة بطريقة هستيرية رعناء . كـــان الزبد يتطاير من فم الموظف وقد جحظت عيناه . لازمنى هدوئى رغم الكرسى الذى أقتعده . كان على ان أمعن النظر فى هذا الوضع جيدا . خارج الغرفة كان الناس يبيعون سواعدهـــم مقابل قطع سكر صغيرة مربعة بيضاء ، فى الاسواق والساحات العمومية واديرة الرهبـــان .

((اقتربوا يا عباد الله واكشفوا عن سواعدكم ، مقـــابل ساعد قوى يمكنكم أن تربحوا قطع سكر . سكـــر حقيقى . انتهزوا هذه الفرصة الذهبية يا عباد الله . نوصيكم عباد الله بالعمل ، فالعمل اثمن كنز . تشبهوا بالحمير فى حسن العمل والصبر على تحمل المشاق . واحذروا عباد الله الطمع فـــى مباهج الدنيا الفانية واموالها . نوصيكم بالقناعة والفقـــر . نوصيكم بالفقر . الفقر - الفقر . وقد سعد فى الدنيا والاخرة من ولد فقيرا ومات فقيرا)). انا فى الغرفة الرهيبة الموحشة انا والموظف . كانت الالة الكاتبة ترسم مصيرى ما تزال . ولما كانوا قد وضعوا بينى وبين عدوى حواجز كثيرة شائكة ، فقد قررت ان اجتازها واحدا واحدا حتى اجد نفسى مع العدو وجها لوجـــه .

ادريس الصغير

أوجـــار محمـــد

الطريق نحو العالم الآخر

قصـــة قصيـــرة

الحرارة مرتفعة هذا اليوم ، ولم تستطع صفائح الزنك أن تقلل من درجتها داخل « البراكة ». احمد ينقل عينين زائغتين بين زوجته رقية التي تئن فوق الحصير أنينا يدفعه الى ان يجرى ويقتل اقرب صيدلى ويأخذ كل ما فى الصيدلية من ادوية ليفرغها فى جوفها وبين اطفاله السبعة الذين جلسوا فى الجانب الاخر من الحصيرة يرقبون أمهم فى صمت وذهول ويستمعون فى تدسيـــة الى انينها الذى يشكل مقطعا صغيرا من سمفونية العذاب التى تعزف فى الاحياء الشعبية وفى مدن القصدير . احمد يحس ببركان يغلي فى داخله ويشعر برغبة فى البكاء ، او الجرى حتى تنقطع أنفاسه ويتمنى أن تصيبه نوبة قيىء مفاجئة حتى يتخلص من هذا البركـــان .

يصرخ اصغر الاطفال وتحمله أخته الى الخارج . تدخل احدى الجارات وفى يدها صحن طبخت وصفة طبية شعبيـــة تعلمتها عن أمها . نهض احمد ليخرج ، طلبت منه الجـــارة أن

يعرج على الفقيه « السى بوشعيب » ليكتب لرقية حجابا . فـــى طريقه الى غير اتجاه مر قرب المسجد فذكــره الاذان بوصيـــة جارته . هم بالدخول لمنزل « سى بوشعيب » لكنه تذكر أن جيبه فارغ وأن حتى الدين وكلام الله أصبحا تجارة . وتابع طريقه على غير هدى وصورة مدير المصنع الذى أفنى فيه كل حياته ترتسم أمامه كشبح مخيف :

— انت مطرود من العمل . أنا لا أريد فوضوى فى مصنعى . ثم سكت قبل ان يضيف .

هل شبعت يا كلب حتى تؤسس فرعا لنقابة فى مصنعى . اخرج يانذل ... يا كلب .

لم يحتمل ، دافع عن نفسه ، عن حقوقه ، لكن المدير لم يستمع ولم يفهم عندما رفض أحمد الخروج من مكتبه نادى على الشاوش فأخرجه بالعنف .

وقدم أحمد شكايات الى كل الدوائر التى يمكن أن يهمها أمره . وفى كل مكتب كانت تستقبله ابتسامة الموظف الذى يدخن بلا مبالات وهو يستمع اليه ثم بعد ان ينتهى يفوه الموظف بجملة يبدو انه حفظها فى المدرســة :

— سندرس قضيتك ونقوم بالواجب .

وعندما يخرج كان الهاتف يرن فى مكتب الموظف ، واذا بمدير المصنع يتحدث وبعد أن ينتهى يرمى الموظف بشكاية احمد فى سلة المهمـلات .

احمد يفتخر بشىء واحد هو ذهاب بنته وولديه الى المدرسة انه يفعل المستحيل من أجل تعليمهم يستدين ... يجوع لانه من خلال تعليم أولاده يتحدى الفقر والظروف . لكن يبدو ان نهاية

التحدى آنت وان ذلك الامل يجب ان يخبو ، موسم الدراسة على الابواب . شهر رمضان المعظم استنفذ كل ما اقتصده خلال السنة ، وها هى زوجته تمرض لتزيد فى الطين بلة ، أما مقدم العيد فهذا لا يهمه لانه بالنسبة له يوم كباقى الايام . المهم الآن جيبه الفارغ والشغل الذى طرد منه .

ويفيق من تخيلاته على صوت ناقوس سيارة كادت أن تصدمه . يرتجف ويحدق فيما حوله . يضرب الارض بقدمه ليتاكد انه لا يحلم ، منذ ساعة فقط كان فى براكته وسط الاطفال الحفاة ووديان الماء الحار التى تجرى قرب الابواب وها هو الآن يقف ربما وسط عالم آخر : شوارع نظيفة ، قصور على جانبى الطريق . أزبال منعدمة وسيارات كالتى شاهدها عندما ذهب للمرة الوحيدة للسينما ترمق فى الشوارع .

ــ هل سافر الى بلد بعيد بدون جواز سفر ولم يشعر ؟ .. ربما

لكن لا ... لا فهناك شىء ما يجمع بين براكته وهذه المدينة الجميلة . عاد بذاكرته الى الوراء ليتاكد من هذا الشىء . طبعا انه ذاك الشرطى الذى يقف هناك ، فهو الذى امسك به عندما اضربوا مطالبين ببذلات عمل وسيارة نقل نظرا لبعد المعمل .

يقفل احمد راجعا الى « براكته » ويتوقف فى الطريق غير مصدق عينيه .

بجانب شجرة فى شارع خال من المارة ، رجل وفتاة يتعانقان ويتبادلان القبلات فى سيارة فخمة . الرجل يشبه مدير المعمل والفتاة نسخة من ابنته .

لابد انه فقد عقله ، ليتابع طريقه بدل أن يرتكب حماقة.
ــ هل يحسن المدير التقبيل والمغازلة وهو الرجل الذى لم

يتعود غير سب وشتم العمال ؟

ـ وهل تعرف ابنته الطريق نحو هذا العالم ؟

حاول احمد جاهداً أن يتجاهل هذين السؤالين بالصفير ، لكن عندما وصل الى براكته ولم يجد ابنته اصبح السؤالان اكثر حدة . دلف الى الداخل ليصرخ فى وجه زوجته :

ـ أين هى ابنتـــى ؟

لكن الانين أوقف السؤال فى حنجرته . تعلق به أحـــد الاطفال قائلا :

ـ بـــابـــا اريـــد كســرة خبـــز

تحسس جيبه ثم أجـــاب ببرود :

ـ ذهبت اختك لتشتـــريـــه

وعندما عادت ابنته قبيل الفجر ودست فى يده بعـــض الدريهمات لم يسألها أين كانت فيبدو انها عرفت الطريق نحو العالم الاخر وأن المدير يحسن أشياء اخرى غير سب وشتم العمـــــــــال .

وجـــدة ـ اوجـــار محمد

محمد ابراهيم بوعلو

البحث عن صديق ..!

(اقصوصة)

انت تبحث دائما عن صديق يفهمك ، وعندما تصادف شخصا تتوخى فيه ذلك ، وتسعى لربط أواصر الصداقة به سرعان ما يتخلى عنك ..

انها مشكلتك .. ولا يمكن لاى كان ان يفهم مقدار ما تعانيه وانت تبحث عن ذلك الشخص الذى تود أن تقضى معه جل اوقاتك ، تحادثه ويحادثك ، تواسيه ويواسيك .

لا .. ليس ذلك عيبا .. ومن حقك أن يكون لك صديق بل اصدقاء .. ولكن الحظ — دائما — يعاكسك .. اذ سرعان ما يفرون منك ، الواحد تلو الآخر .. وكأن هناك من يطاردك ، ويضرب دونك حصارا حتى لا يكون لك اصدقاء ..

انت تعتقد بانك لن تلبث ان تعثر على ما تريد ، ولكن الايام تتقدم بك ، وانت ما تزال تبحث عن صديق ..

يبدو ولمن لايعرفونك بانك تتوفر على اصدقاء ، ولكن الحقيقة انت ادرى بها ، ليس هناك من يفهمك ، وانت لايمكنك

ان تثق باى كان وتسلمه عواطفك ، هذه العواطف التى انت حريص ، كل الحرص ، على الا تعبث بها .. ولذا انت تنتظر ذلك اليوم الذى تجد فيه الصديق الذى يفهمك ..

وامتطى سيارته على عجل ، وترك بيته واولاده .. كل واحد منهم منهمك فى عمل ما .. لم ينتبه اى منهم الى انه غادر البيت ، مثلما لا ينتبهون اليه عندما يدخله ..

واتجه توا الى الصديق الجديد الذى تعرف عليه اخيرا .. اوقف سيارته بجانب باب منزله ، ودق باب بيته ، فهب اليه الصديق الجديد مهللا ، وادخله بيته ، وهو يلقى على مسامعه عبارات الترحاب .

جلستما مدة طويلة من غير ان يتقدم بكما الحديث ، حاولت من جهتك أن تكون مرحا ، وانت تعلم انك لست كذلك ، وبحثت عن كل انواع الموضوعات التى تعتبر انها تجذب اليها صديقك الجديد ، ولكن فيما يظهر ان الحديث كان لايتطور .. لايتقدم ..

يتقدم نحـــو مـــاذا .. ؟

لست تدرى .. طبعا انت تريد ان تتقدم ولكن الى اين ..؟ الى اية غاية .. ؟ من يدرى .. ؟

هناك جولات تشعر بانك تقطعها .. تقطع الواحدة تلـــو

الاخرى ، ولكن من غير ان تتقدم ، كمن يمرن نفسه بالجرى فى مكان واحد .. انه يلهث وهو يركض ، ولكن لا يتقدم ..

انت لا تريد نتيجة مثل هذه :

ان تركض فى نقطة واحدة ، بل تريد ان تصل الى نتيجة افضل ..

وودعه الصديق عند الباب مبتسما ، وامتطى سيارته من جديد ، واخرج لفافة تبغ اشملها بسرعة ، ثم ما لبث أن اخذ ينفث دخانها باطراد ..

ادرت فى دماغك الحديث الذى دار بينكما .. كان حديثا عاديا تتخلله ابتساماتك المصطنعة ، وصوته الرقيق المذب وهو يشجعك على المضى فى الحديث .. ! انك محدث ذكى تجلب لك الاسماع ، وتستحوذ على الآذان .. ولكن — فيما يظهر — هذا ما لا تريد ان تصل اليه .. انت تعرف ، مسبقا ، انك تحسن الحديث وتحسن الاستماع ، ولكنك تريد أن تصل الى امتلاك الالبـاب . .

ولكنها موصدة دونك ، ولذا انت ما تزال تبحـث عـن صديق ..

ارتمى بسرعة على الحصار يوقف سيارته عندما فاجاته بهيمة تقطع الطريق .. بعد ان ابتعد عنها انتبه الى انه لـم يعرف ما اذا كانت حصانا ام بقرة ..

الواقع انك تمر من حالة خاصة .. بدات تفقـد فيهـا اعصابك .. لا شك انك فى حاجة الى استراحة .. ولتكن طويلة فهذا احسن .. ثق ان حالتك ستعود الى مجراها الطبيعى عندما تترك عملك وتبحث عن مصطاف جميل تقضى فيه بعض الوقت..

وعلى غير عادتك فاجات زوجتك واولادك بقضاء بضعة ايام فى الجبل .. وفرح الجميع لهذه العطلة المفاجئة ، ولم يتاخر اى واحد منهم فى تلك الليلة عن أعداد العدة للرحلة البعيدة ..

وانطلقت بهم فى سيارتك ، وانت واجم لا ترين .. اعتقدوا جميعا بانك ما تزال مثقلا بالنعاس ، فانت استيقظت باكرا على

غير عادتك ، وانت اكثرهم يقظة ، ولكنك مع ذلك لاتريد ان تكلم احدا .. وأعجبك ألا تهتم بك زوجتك ، وتلقى عليك باسئلتها التقليدية التى مللت سماعها .. وسمحت لرجلك بان تضغط على دواسة البنزين كما تشاء .. وسر الاطفال بالسرعة الفائقة التى تسوق بها عربتك ، خاصة وقد ساعدك على ذلك الطريق الخالية ..

كان صوت السيارة وحده يخيم عليكم جميعا .. وصوت احتكاك العجلات بالارض عند كل انعراج يقلق زوجتك ، فقد لاحظت ان قسمات وجهها تعبر عن امتعاض .. ولكنك لم تهتم بها ، المهم أن تصل قبل ان تشتد وطأة الشمس ..

ولم ينتبه فى احدى المنعرجات الى وجود شاحنة راسية بشكل غير طبيعي ، فابتعد عنها الى الجهة الاخرى الى ان كادت السيارة تنزلق فى المنحدر الايسر ، واستشاط غضبا .. ثم انطلق يلعن ويسب ، ثم أوقف سيارته ، ونزل يبحث فى جيوبه عن علبة سجائره ، ثم أشعل واحدة منها وهو فى أشد ما يكون التوتر ..

وظلت زوجته والاولاد داخل السيارة يتابعون حركاته ، فى حين كان هو يذهب ويجيء ، وينفث دخان سيجارته ، حتى اذا ما انتهى منها امتطى سيارته وقفل راجعا ..

لم تقل لهم بانك قررت الرجوع ، بل اكتفيت برفع عقيرتك بالسباب عندما اقتربت من الشاحنة المعطوبة ، ثم ما لبثت ان اطلقت العنان من جديد لسيارتك ترجعكم الى البيت ..

انزلتهم جميعا من السيارة وهم فى حزن شديد .. ولم تهتم بنكستهم ، بل كنت تفكر فقط فى صديقك الجديد ..

وانتقل الى الشارع الذى يسكنه صديقه ، حيث أوقــف سيارته ونزل يدق باب بيته ، وانتظر خروج صديقه اليه مهللا كعادته .. وطال انتظاره من غير ان يفتح له الباب ، اعاد الدق عدة مرات ، لكن من غير جدوى ..

أنت تعلم انه بالبيت لان سيارته ما تزال هناك .. ولكن لماذا لا يفتح لك الباب .. ؟ لماذا لم يخرج اليك كعادته .. ؟ لماذا لايخرج ويطلعك على عدم استقباله ، مع انك تعلم أنه لو اعتذر لك باى اعتذار تافه فانه يكفيك .. ولكنه تركك بالباب تنتظر ..

رجع الى سيارته وجلس خلف المقود ، ثم اشعل سيجارته ثم انطلق ينظر فى شرود الى زجاج سيارته ..

ورجعت تفكر فى نفسك بجدية اكثر ، واتضح لك أنك تحتاج الى من يعالجك ، .. الى طبيب نفسانى .. واستبدت بك الفكرة أكثر .. ولم تعد تقول على عادتك دائما باننا جميعا فى حاجة الى أطباء نفسانيين .. اذ المجتمع كله مريض .. وكم يحتاج من اطباء .. !

وبدأت نفكر وتفكر ، وإنتهيت الى أنك فى نهاية الامر لاتحتاج الى أكثر من ان تصادق نفسك ، هذه التى تفر منها باستمرار ، وتسعى الى الاخرين لتصادقهم ، ولكنهم لا يقبلون ، لانهم يعيشون مشاكلهم ، وتكفيهم وزيادة .. اما أنت فعد الى بيتك ، وصالح اسرتك ، وخذهم الى الجبل ..

عندما عاد الى بيته وطلب من زوجته ان تسافــر معــه رفضت ، ثم انفجرت باكية .. خف اليها الاولاد فى حنان يواسونها وهم ينظرون الى ابيهم نظرات قاسية ..

لم تحتمل نظراتهم .. ولم تحتمل نشيج زوجتك وهى تبكى واحببت أن تفر .. ان تفر الى ابعد نقطة فى العالم .. وخرجت تبحث من جديد عن صديق يواسيك ..

محمد ابراهيم بوعلو